سلسلة شهادات سورية 10

أرض مـائـدة

ضحى حسن

بيت المواطن
للنشر والتوزيع

أرض مائدة

ضحى حسن

أرض مائدة

سلسلة شهادات سورية -10- أرض مائدة
ضحى حسن

الإخراج الفني: فايز علام
صورة الغلاف: من حلب بعدسة الكاتبة
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى ـ 2014

ISBN: 978-9953-583-52-5

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية
«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

الناشر:
بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق ـ الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا ـ بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 1 961+
فاكس: 750053 1 961+
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.

الإهداء:

إلى إخوتي

خرجتُ مواطنة وعُدتُ سائحة
هنا دمشق

2013/1/2

عند عبورك الحدود إلى سورية تشعر بالجفاء، فالصقيع يرتسم على وجوه رجال الأمن المنتشرين هناك. تحمل جواز سفرك، وتخبّئ هاتفك. تأخذ نفساً عميقاً. تتوجّه إلى الشخص الجالس خلف الزجاج، يحدّق بك وبكل الموجودين في المكان، تمدّ يدك، تنظر إلى صديقك في الصف المجاور. لن تنتظر كثيراً، فالمغادرون اليوم هم الأكثريّة.

يُختَم جواز سفرك فتتنفّس الصعداء، وتخرج مسرعاً. تقف بعيداً قليلاً في انتظار صديقك، يخرج، تركبان السيّارة وتبتسمان. لقد تجاوزتما المرحلة الأولى وها هي ذي الطريق إلى دمشق مفتوحة أمامكما.

نشوة عارمة تصيبك ما إن تطأ قدماك الأراضي السورية، وتستمر إلى أن يستوقفك الحاجز الأول. شاب صغير يبدو أنه بلغ الحلم قبل قليل. شارباه لم ينبتا بعد. يطلب هويتيكما ويفتح صندوق السيارة، يفتش السيارة، وينظّم المرور. تبتسمان بتأهّب. بعد 100 كيلومتر، يستوقفك حاجز آخر: رجل في الـ50 من العمر، ملامحه لطيفة، تستغرب وجوده هنا، تسأل نفسك: «ألم يتقاعد بعد؟»، يشير بيده كي تمرّا من دون أن يرى الهوية. وبعد 50 كيلومتراً، حاجز مختلف يتمركز بجانبه رجل ثلاثيني قاسي الملامح يحمل

في يده سيجارة يدخنها بـ«عنف»، على غرار ملامح وجهه. يطلب منك التوقف ويحدّق في وجهيكما. كأنه التقط فريسته. يفتش السيارة ويدقّق بالهويات وقد فاحت منه رائحة تبغ عفن. يعطيك الإيعاز بالمغادرة.

تحاول تجاهل كل هذه الحواجز ووجه الرجل الجالس خلف الزجاج وهو يحرّك يده على الحاسوب للتأكد من هويّتك، وعين العسكري النهمة وهو ينفث الدخان ويحدّق بكما.

وأخيراً، هنا دمشق.

تفترقان كلٌّ إلى وطنه داخل الوطن.

صراع المشاعر في «الشام» يوازي أصوات القصف المنبعثة من قاسيون. رغبة ملحّة في التمسّك بفكرة امتياز المكان بصمود شعبه وصبره، تهزّها بين لحظة وأخرى عيون أهلها المتأهّبة والمتعبة. الناس في دمشق يجولون في الشوارع متجاهلين بحكم العادة الطائرات المتوجّهة نحو هدف جديد.

سماء المدينة يعمّها ضباب رمادي تُفضّل أن تنسبه إلى حالة الطقس، في حين تبرّر لنفسك عدم قدرتك على الاتصال بمعظم الأرقام المسجّلة على هاتفك (معتقل ـ مسافر ـ منفي ـ مهجّر ـ ميت). تحاول أن تلتقي بمن بقي منهم والذين «نفسك فيهم». تشعر بثقلك أمامهم وأنت تجلد نفسك بكل أسباب هروبك، غيابك عنهم، تحاول تجميلها وتغليفها، فتصفعك ابتساماتهم أثناء التحدّث عن كيفية الاعتياد على الحياة اليومية الجديدة على إيقاع الوضع الحالي، الذي تغيّر تغيّراً كبيراً في الأشهر الثلاثة الأخيرة.

التقيت بأصدقائي في بيت جمعنا كثيراً قبل الثورة وخلالها. بدأ سباق الأحاديث عن أخبارهم وعمّا يجري، وكيف أصبحت «ربطة» الخبز هدية هذه الأيام. عن الشوارع التي علينا أن نسلكها وما قُطع منها، وموعد العودة إلى المنزل ليلاً، وأوقات قضوها معاً أثناء ارتفاع حدة القصف والمداهمات والاعتقالات.

هل سأكون هنا ليلة رأس السنة؟ سألني صديق، وقطعت حوارنا إجراءات الاستعداد لانقطاع الكهرباء واقتراب موعد المغادرة. حضنته بقوّة. حاولت أن أجفف دموعي قبل أن تسقط كما فعل هو. وافترقنا.

لقاءات كثيرة كهذه، كانت حميميّة وموجعة، وشعور بالذنب لا يفارقك، ورغبة بالبقاء لا يمنعك منها سواك. تحاول المضي في زيارتك تلك، وإن كنت تمتعض من شعور أنك «سائح». إنها حقيقة، فأنت لم تعد تعيش تفاصيل ما يمر به مَن بقي هناك، يصدمك ارتفاع أسعار المواد الغذائية وغيرها، إغلاق طرق جديدة، ازدياد الحواجز، قطع الكهرباء المستمر، ورحيل آخرين.

كل هذا وأكثر، فأنت لم تعد تشاركهم حياتهم، أنت أصبحت في الخارج، تعلن حزنك، شوقك، غضبك، وحبك عن طريق وسائل الاتصال كأي مغترب آخر. تستمع الى أحاديثهم وتخبِّئ الأحداث التي تمر بها في البلد المجاور خجلاً، صديقك ما زال معتقلاً، وآخر رغم خطورة بقائه هناك ما زال متمسكاً بالبقاء وإن كانت نهاية تعنّته مقتله.

الصباح في دمشق سباق مع الزمن قبل أن يحلَّ المساء وتنام الشوارع. معظم الطرق مقفلة بمتاريس وحواجز، ما يشكّل زحمة سير خانقة. عليك أن تسير على قدميك لتتجنب الوقوف ساعات قبل أن تصل الى الشارع المقابل.

الأصدقاء هناك.. أو من تبقى منهم ما زالوا يشربون القهوة الصباحية في المكان المعتاد، يذهبون إلى أعمالهم، ويلتقون في المساء حتى ساعة محددة، فالليل ليس آمناً كما النهار، لكن الضوء في هذه الحالة يكشف السماء.

العلاقات الاجتماعية أصبحت حميمة أكثر، التكاتف من أجل البقاء في الداخل يخلق حالة مختلفة تماماً في العلاقات البشرية الاعتيادية.

ليلاً، في دمشق، يُعلن حظر خفي للتجوّل، وإن خرقه البعض، فالغالبيّة تلتزم به. تغيب الشمس وتغيب معها الحياة في شوارع المدينة. ماذا حلَّ بمدينتي خلال 3 أشهر؟

ربما لم يكن عليّ المغادرة مجدداً.

ربما كان عليّ أن أبقى. أن لا أغادر هذه الأُلفة.

حين قالت لي معلّمتي:
«حافظ الأسد كما الله لا يموت!»

2013/1/23

«عهدُنا أن نتصدّى للإمبريالية والصهيونية والرجعية، وأن نسحق أداتهم المجرمة عصابة الإخوان المسلمين العميلة».

أمام المرآة رحتُ أردّد هذه العبارة لأحفظها، من دون أن أفكر بفحواها. هكذا طُلب منّا. ردّدتها طويلاً وأنا أقصّ «كنزتي» العسكرية ليبقى منها ياقة أرتديها تحت السترة العسكرية.

في صباح كل يوم كنت ألملم دفاتري السوفييتية التي استُبدِلت فيها بصورة «ستالين» صورة «قائد مسيرة التصحيح»، وأجمعُ بعض الكتب، ومنها كتاب القومية العربية المشبّعة بأقوال «القائد الرمز» حافظ الأسد، ولاحقاً بأقوال «السيد الرئيس الدكتور بشار الأسد»، وأتجه إلى المدرسة.

هكذا نشأنا نحن تحت قبعة «البعث» بإشراف «الأب القائد»، مشاريعَ جنودٍ صغارٍ منذ عمر السنوات السبع. إذ من ذاك العمر كان واجباً علينا الانتساب لمنظمة «طلائع البعث» مروراً بـ«شبيبة الثورة»، وصولاً إلى الحزب «العملاق».

الساعة السابعة صباحاً، نصطف جميعنا في طابور المدرسة بانتظام، نرتدي قبعات الزي الرسمي (السيدارة)، تكشف الطالبات المحجّبات عن شعورهنّ، فلا حجاب مسموحاً داخل المدارس. على خصورنا شددنا

كالرجال «الحزام الزيتي» (المعروف باسم النطاق)، يتم التأكد من خلو ملامحنا من أي تبرّج عبر إمساك رموشنا وحفّها بين أصابع مدرِّبة «العسكرية». في بعض الحالات تمسك المدربة برأس إحدانا وتضعه تحت الماء، وتفرك الوجه بيديها الغليظتين، حتى تتأكد من أن لا شيء سيعكّر الوجه البعثي في الطابور المقدّس الذي تشرف عليه.

نأخذ الإيعاز، نرفع رؤوسنا باتجاه العَلم السوري المرفرف على حافة الحائط الحجري الجاف مستعدّين للأوامر العسكرية، وأمامنا يقف أساتذتنا بزيّهم المدني، ثم يصدح النشيد الوطني.

المناسبات الوطنية، ما أكثرها في ظل انتصارات الأسد العديدة: ميلاد الحزب، ذكرى الحركة التصحيحية المجيدة، وحرب تشرين التي «انتصرت فيها إرادة الجيش السوري على العدو الغاشم»، بحسب أقوال «الرئيس الخالد حافظ الأسد» التي غزت جدران المدرسة كلها، والتي تترافق مع رسومات تصوِّر «قواتنا الباسلة».

وكنا نحن نستعد لهذه المناسبات، كما اعتادت أن تتحضر لها كل الدوائر والمؤسسات الحكومية والخاصة، وكان يسبق هذا اليوم المجيد عطلة للتحضير للرقصات والعروض المسرحية والهتافات والأناشيد التي تمجد القائد وتبجّل القائد وتحتفي بالقائد. وكنّا نقف جميعنا «رعايا الأسد» مستعدين، ويبدأ الأطفال مرتدين زيّ الطلائع بالغناء أمام صورة الرئيس: «للبعث يا طلائع، للنصر يا طلائع، أقدامنا حقول، طريقنا مصانع، وتلمع الرايات في مواكب الطلائع، يا راية الحرية يا شعلة القضية...»، وهكذا يتحوّل الطفل إلى عسكري، ويبدأ بتعلّم أن يكون جزءاً من القطيع، والتبعية الخالصة للقوة الأكبر، ويعتاد على ترداد ما يقال له.

ويهجم «أشبال الأسد» شبيبة الثورة، برقصة عسكرية على وقع أنغام نشيد: «تسلم للشعب يا حافظ، أمل الملايين يا حافظ، علّيت الراية يا

حافظ...»، فيما يجهِّز رجال «حزب البعث» من طلبة الثانوية عرضهم المسرحي في محاولة لإعادة تمثيل منجزات الحزب وانتصاراته بقيادة الأسد. وتختتم الاحتفالات ويشبع النظام غريزته في السلطة برؤية الجيل الجديد خاضعاً له.

أنت، كسوري مراهق مُجبَر على الانتساب لشبيبة الثورة ومن ثم لحزب البعث، خيارك فيهما أن تنتسب أو أن تنتسب. أما أن تكون مراهقاً كردياً سورياً، فعليك أنت غير العربي أن تقول، على نحو ما حصل مع زميلتي: «أمّة عربية واحدة ذات رسالة خالدة»، فهذه مفارقة لا تعنيهم. عليك أن تقول ذلك، حتى لو لم تكن مؤمناً به. قله وغادر إلى منزلك ونَم.

لأول مرة تشعر بأن لسانك تخدر، وأن أطرافك بدأت ترتجف، وهنا تتعلم الانصياع لأوامر النظام وتشعر بالخوف للمرة الأولى على نفسك وعلى أسرتك، تتعلم الصمت تحت قسم الانتساب وفق الفساد الدستوري للمدرسة والقائمين عليها، فيما يتعلم الطلبة في بلاد أخرى كيفية التعامل مع مرحلة البلوغ.

10 حزيران 2000 مات حافظ الأسد، وكان موته معجزة سماوية، كنّا نظن أن الديكتاتور «الأب» لا يموت، فتمجيده اليومي أثناء تعلّمي للنطق، جعل موته عصياً حتى على الآلهة.

حينما استلم بشار الرئاسة دخلتُ إلى المدرسة بعد عطلة صيفية توزّعت بين الحزن على موت «الخالد»، والتهليل بتعيين الابن، كنا مرتبكين حول ما سنردّده من شعارات، وإذ بها لم تختلف إلا بإضافة كلمة خالد ملازمة لاسمه، بقي قائدنا إلى الأبد الأمين (الخالد) حافظ الأسد، و«استرح»...

دخل الجميع إلى صفوفهم، دفعني فضولي المراهق إلى الركض نحو المديرة. أخذتُ نفساً عميقاً ووضعت رأسي في الأرض (بحسب العادة)

وقلت لها: «بما إنو حافظ مات واستلم بشار، ليش ما بنقول قائدنا إلى الأبد الأمين بشار الأسد»، أمسكتني من شعري في تلك اللحظة وأدخلتني إلى مكتبها وأغلقت الباب، وقالت بصوت خافت: «الرئيس حافظ الأسد ما بيموت، متل الله».

فتحَت الباب، وضعَت يدها الثقيلة على كتفي الصغير، نادت مدربة «العسكرية» وقالت لها: «نزّليها لتحت خلّيها تزحف كل الساحة، وبعدين توقف على رجل وحدة طول النهار». لم تسألها عن السبب ولم يكن يحق لي الاعتراض آنذاك.

ذاك اليوم أصابني إرهاق قوي بما يريدونني أن أكون، مراهقة تمارس بعثهم بكل استسلام، إلى أن تم تسريحي من المدرسة بعد الثانوية، وبدأتُ مرحلة أخرى أركل فيها كل ما في داخلي من نظامهم، بحذر.. عبر غزة ومصر وليبيا، إلى أن أتت اللحظة لأفجّر كما فعل الكثيرون الخوف من الأب الخالد والابن، ومن نظام المخابرات الذي ألصق نفسه على نضوجي، وكانت الولادة الحقيقية والبلوغ الطبيعي لأجيال عدّة تربّت كالعسكر الخاضع لتخدم الأسد، بأن تلعن روحه وتثور ضده وضد 40 عاماً من تاريخهم معه.

الساعة الواحدة ظهراً في أحد أيام آذار 2012 خرجَت 3 فتيات في وسط دمشق، حملن لافتات الحرية، وتوجّهن نحو المدرسة التي تلقّين فيها تعليمهن. وقفن أمامها، على رغم وجود رجال الشرطة وعناصر الأمن في كل ثقوب الشارع. على مرأى من كل العابرين، رفعن لافتاتهن في وجه 18 عاماً.

لقد نفّذت هؤلاء الفتيات الثلاث ثورتهن الخاصة في وجه النظام وانتقمن لطفولة دمّرها نظام «البعث».

صحيح أن لكلٍ سببه كي ينخرط في الثورة على النظام، لكن كل السوريين تعرضوا لتشويه واحد في مدارس «البعث» العسكرية.

إلى باسل شحادة في ذكرى رحيله

2013/5/28

دمشق الساعة 10 ليلاً، في رأسي مدينة «صُوَر»، وصوت واحد يتردّد بقوّة: «أنا ما رح موت!».

أذكره جيداً... لقاء العيون في تلك الليلة كان صعباً جداً، كما الوقوف تماماً.

ثقل الموت قاسٍ، يمكن إدراكه في وجوه الأصدقاء المبعثرة على سلم المنزل الطويل الذي يبدو صاعداً إلى السماء، وفي صمت المدينة الصارم المقطوع بدقات قلوبنا التي أصبحت واحدة، وأصوات تدحرج القذائف على أطراف المدينة، وجه صديقتي، «حبيبته»، وملامحه معاً.

كان النكران سيد الموقف في تلك الليلة، كل شيء كان يبدو زائفاً.. مقطع الفيديو.. مكالمات واتصالات تؤكد ما حدث.

صفحات الفايسبوك تكذّب، المحطات الإخبارية تكذّب.. حتى نحن الواقفين على الدرج الطويل كنّا نكذّب مردّدين: «ليس هو بالتأكيد.. لا يمكن ذلك»، أن «نرى جسد صديقنا صامتاً مدوياً راحلاً عنا».

بعد ساعات قليلة تحوّلت الوجوه المفجوعة إلى وجوه غاضبة حزينة، وهَبَّ الحديث عن كيفية تشييع حزننا، عن الشكل الذي سنخبر فيه المدينة والبلد بأجمعه أن «صديقنا صاحب الابتسامة استشهد، وأن تهمته كانت «حامل الكاميرا».

صديقي ذو الابتسامة

من القبر إلى السماء...

الموت في الوطن، هو تماماً كالعودة إلى الحياة الحقيقية، والحياة في الغربة كما تراكم القبور في الجمجمة، تلقي بنفسها عليك حتى تصدأ، وكأنك تحفر بأظافرك في تابوت لا رائحة له، فارغ تماماً إلا منا.

الوطن اليوم لا يشبه الوطن قبل عام، ربما نحن لم نعد كما كنّا قبل عام، لم نعد نحصي عدد الموتى، بل تقمّصنا الجثث، وبقي الأحياء هناك فوق التراب وتحته.

في مكان ما على الحدود خارج الوطن تتكئ المخيّمات على الفراغات التي لم تحتلها القبور، بين أصابع الأقدام العارية.

وأنت يا صاحب ابتسامة طفل صغير، ما زلنا نسمعك تدندن في الكادر بين دمشق وحمص: «ولا حكم النذل فينا»، حينئذ فقط نبتسم...

والحب يا صديقي، فقدنا منه الكثير، أما حبيبتك فما زلنا نراها تقلّم شعرك على وجهها، وتغني لك تراتيل السلام.

يا صديقي، أما زلت تدير كاميرتك؟ هل ما زلنا في الكادر؟

«NOW» في الرقّة المحرّرة: ثورة ثانية بوجه «النصرة»

2013/6/26

ثورة مضادة بدأت في محافظة الرقّة السورية بعد تحريرها من النظام السوري. فكلّ ما تشهده المدينة يُنبئ بذلك، من الجدران التي رُسم عليها صراع المدنيّة ضد سلطة السلاح المتشدّد، علَم الاستقلال ضد العلم الأسود، وخطّ شعارات الثورة في مواجهة عبارات «جبهة النصرة» و«أحرار الشام».

هذا هو تماماً حال الحياة في المدينة المحررة. في 2013/3/4 دخلت مجموعات من الملثّمين باللباس الأسود، مدجّجين بالسلاح، وهم يهتفون: «قائدنا للأبد سيدنا محمد»، وكانوا يصيحون بصوت واحد: «تكبير»، وفق ما قال لنا أحمد، وهو أحد هتّافة التظاهرات في الرقة، وأضاف: «حينذاك شعرنا بالسعادة للحظات أثناء هروب عناصر جيش النظام والأمن خارج المدينة، لكن هذه السعادة تلاشت فوراً عندما بحثنا بين المحرِّرين عن علم الاستقلال، توجّهنا إلى «دوّار الدلة»، وهتفنا: «لا سنّية ولا علوية.. سورية وحدة وطنية»، لم ندرك حينذاك أن من قاموا بتحرير مدينتنا هم أنفسهم من سيحتلونها».

في الأسبوع الأول من التحرير، تحوّلت الرقة إلى مدينة أشباح، يتجول فيها المسلحون ومَن تبقّى من سكان المدينة، وتابع أحمد: «خرج معظم الأهالي من الرقة في الأسبوع الأول، بسبب القصف المستمر من

قبل الطائرات الحربية التابعة لجيش النظام، في حين فرض المتشددون القادمون الجدد فريضتهم على جدران «رقّتنا» وشوارعها، كما ألزموا السكان بتطبيق شريعتهم، ولاحقوا النساء كي «تنستر»، سيطروا على كل المباني الرسمية والدوائر الحكومية، وعاقبوا كل من عارضهم بطريقتهم الخاصة».

قابلنا أحمد الفتى ذا العشرين عاماً، وهو طالب في «جامعة الاتحاد» يدرس إدارة الأعمال، جلسنا داخل مبنى «تنسيقية شباب الرقة»، فأدركت أن هذا الشاب الصغير المبتسم، هو ذاته «قاشوش الرقة»، الذي لطالما صدح صوته في التظاهرات ضد النظام السوري.

يخبرني أحمد عن الرقّة بعد التحرير، عن صراع الشباب المدني ضد «الجبهة» و«حركة أحرار الشام»: «عندما تحررت الرقة أسدلتُ علم الاستقلال على طول المبنى الذي أقطن فيه، شعرتُ بسعادة عارمة، ها أنا أرى من كانوا يعتقلوننا ويقتلوننا يهربون كالأرانب»، وأكمل: «أخذتُ أبحث عن كتائب «الجيش الحر»، عن أعلام الثورة، حاولتُ أن أصغي جيداً في هتافات القادمين، من هؤلاء؟».

أحمد كان اعتُقل على يد قوات الأمن السوري في الرقة، قبل التحرير، تنقّل بين فروع الأمن في عدد من المحافظات لمدة شهرين، بدايةً لدى الأمن العسكري في الرقة مروراً بالأمن العسكري في دير الزور، نُقل بعد ذلك إلى سجن تدمر، ومن ثم إلى السجن البولوني في حمص. وكانت دمشق أيضاً إحدى محطات اعتقاله في الشرطة العسكرية بالقابون، وفي الفروع 291 و215 وفرع فلسطين، ومن هناك نقله الأمن السوري بطائرة من مطار المزّة العسكري إلى سجن حلب، وانتهى به المطاف في سجن الرقة المدني. تعرض الحاج خلال هذه الرحلة إلى كل أنواع التعذيب التي تعرض لها العديد من شباب الثورة السورية على أيدي عناصر الأمن.

يستدلّ بتاريخ مواجهته مع النظام السوري ليقول إن «معظم سكان

الرقة مستعدون لمواجهة النظام الجديد»، ويتابع: «فعلاً استطعنا الوقوف في وجه «الجبهة» و«الأحرار» الذين تراجعوا فوراً إلى مراكزهم داخل المدينة، لقد صمدنا في وجه النظام السوري كل هذا الوقت، ولن نسمح للعسكر المتشددين بفرض استبدادهم علينا، منذ ذلك الوقت تغيّر تعاملهم معنا، وقطعوا تواصلهم مع المدنيين».

حمل أحمد السلاح بعد خروجه من سجون النظام، توجّه حينذاك إلى تل أبيض وانضمّ إلى «جبهة النصرة»، التي أعطته السلاح والذخيرة وكامل السلطة، لكنه لم يستطع البقاء معهم لأكثر من 10 أيام. ألقى سلاحه وعاد ليهتف مع المتظاهرين السلميين في الرقة.

«خرجنا في تظاهرة بشارع الوادي تحت عنوان «تظاهرات ما قبل التحرير»، وذلك في محاولة لتذكير الجميع بمبادئ الثورة التي خرجنا من أجلها، طلبنا من الجميع رفع أعلام الثورة وإنزال كل الأعلام الأخرى، حينذاك رفض «أحرار الشام» إنزال راياتهم بحجة أن «اسم الله يجب أن يبقى عالياً»، هتفنا للحرية والمدنية، وهم هتفوا لتطبيق شرع الله، وبدأت أصواتنا تصدح لتغطي على هتافاتهم، كان هذا صدامنا الأول مع هذه الحركة».

خرجت العديد من التظاهرات ضد «جبهة النصرة» و«أحرار الشام» رداً على الانتهاكات التي يقومون بها ضد المدنيين في المدينة، كانت آخرها يوم الاثنين أمام مبنى المحافظة، الذي أصبح مقر «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، وكانت للمطالبة بالإفراج عن المعتقلين وضد الاعتقال التعسفي بحق الناشطين السلميين.

الحياة اليوم في الرقة لا تشبه أبداً المشهد الذي تتناقله وسائل الإعلام، أو المظهر الخارجي لها، الشباب يتجولون في الشوارع ويقفون أمام مراكز تجمعاتهم المدنية، النساء يتمشين ويرتَدْن المقاهي حتى ساعات متأخرة

من الليل. «وضعتُ الحجاب في الأيام الأولى من التحرير، لم أكن أعرف حينذاك ماذا ستكون ردة فعل «الجبهة» حينها، لكني قمت بخلعه في اليوم الخامس ولم يتعرض لي أحد، لقد فرضنا شروطنا عليهم وها أنا أجلس في المقهى مع صديقاتي وقد تعدت الساعة 11 ليلاً»، تقول ريم.

العديد من الفتيات في المدينة، ريم واحدة منهن، كنّ من منظمي التظاهرات في المدينة، وما زلن حتى اليوم يتظاهرن ضد الجبهة والأحرار، وهن أعضاء في عدد من التجمعات المدنية.

أحاديث الأهالي مزيج من الإحباط والغضب تجاه المسيطر الحالي، لكنهم في الوقت ذاته فخورون بتحرير المدينة وما ستؤول إليه قريباً. يسردون قصصهم قبل التحرير بسعادة وتفاؤل. «هي ثورتنا وما رح نخلّي حدا يسرقها منا»، هذه العبارة تسمعها من معظم شباب الرقة وفتياتها، وهم يخوضون ثورتهم الثانية ضد النظام الجديد، الذي لا يشبه أبداً حلم السكان بـ «رقّتهم» المحررة.

من «طريق الباب» في حلب:
أحاديث الثورة في ملجأ «عدنان»

2013/7/3

حي «الربيع العربي»، أو «طريق الباب» قبل الثورة، طفلُ معركة حلب المُتعَب. تلك المعركة التي لم تضع أوزارها بعد، تُغرِق شوارع الحي بفقرٍ جاف، تغيب كل معالم الحياة فيه مع اختفاء الشمس، وتبقى آثار المعركة الجارية شاهداً وحيداً على حداد دائم.

يتعرّض الحي لقصفٍ متقطع هذه الأيام. المنازل المدمّرة في كل مكان شاهدة على عنف القصف المتواصل في فترات سابقة. شوارع التهمتها صواريخ «سكود»، لكن أهالي الحي ما زالوا يتذكرون مراحل ثورتهم الأولى بشيء من الحنين: تظاهرات واحتجاجات سلمية للمطالبة بالحرية والكرامة. اليوم يبدو الحي بكل دماره هذا، كمن يقبع في غيبوبة مؤلمة.

أقمنا في بيت الناشط «عدنان الغجر» لأربعة أيام. هذا المنزل الصغير هو ملجأ شباب الحي، يقضون فيه معظم أوقاتهم بعد هبوط الليل. ومع انقطاع الكهرباء المستمر، تتوقف الحركة في أغلب المناطق، وتبقى داخل المنزل حيث الملاذ الآمن على ضوء الشموع. منزل «عدنان» يشبه المنازل العربية القديمة، مؤلّف من طبقتين و«أرض ديار» صغيرة، ينام الجميع في الطابق الأرضي لأنه أكثر أماناً في حال تعرضوا للقصف من قبل طيران النظام.

تدور معظم أحاديثهم عن الوضع الحالي للحيّ، عن الاعتصامات ضد «الكتائب» الإسلامية المتشدّدة واعتراضهم على وجودها، عن عدم تمثيل الهيئة الشرعية لهم ولما خرجوا من أجله، عن الحراك المدني وأسباب تراجعه في «طريق الباب» وما حوله بعد التحرير.

يحدثنا «الغجر» عن «الضغوط التي نتجت عن جمود الجبهات في مراكزها التي وصلت إليها بعد تحرير عدد من المناطق، إلى جانب القصف وانقطاع الموارد، فقد شعر سكان المدينة المحررة باليأس والإحباط». يعتقد الغجر أن «هذا الأمر مفهوم جداً، فالكثير من العائلات فقدت منازلها وأبناءها، إلى جانب خسارة أعمالها»، ويضيف: «في الأشهر الأولى انقطعت الموارد الغذائية وتوقّف عمل الأفران بشكل كامل، أذكر في تلك الفترة أني استيقظت الساعة 3 صباحاً من شدة الجوع، وتوجّهت إلى منزل صديقي لربما وجدت شيئاً لآكله، كان عنده رغيفًا خبز والقليل من الزيتون، لا أعرف كيف أصف شعوري بالسعادة حينذاك».

في 2011/7/21 تحوّل «طريق الباب» إلى بوابة تحرير المدينة، يقول الغجر، «قامت مجموعة «أبو معاوية» التي شكّلها شباب الحي، بضرب الحواجز المتمركزة فيه لتسهيل دخول الكتائب إليه»، مشيراً إلى أنه «لم يتم قتل العناصر التي كانت تقف عند الحواجز، بل تم إعطاؤهم الخيار بين الانشقاق والمشاركة في معركة تحرير حلب، أو العودة إلى منازلهم». ثم وصلت تعزيزات عسكرية من النظام لصدّ هجوم كتائب «الجيش الحر» ومنعِها من الدخول إلى الحي، بالتوازي مع قصف بالطائرات الحربية، ويضيف عدنان: «قمنا بقطع الشوارع حينذاك مستخدمين الدواليب، وقام «الجيش الحر» بردع قوات النظام، وفي اليوم الثاني، حُرّر الحي بشكل كامل ودخلت الكتائب إليه ترفع أعلام الثورة، وهي تهتف: «الجيش الحر للأبد غصب عنك يا أسد»، و«حرية للأبد...»، « لواء التوحيد قادم إلى دمشق»».

تحرّرت أحياء مدينة حلب الشرقية تباعاً، مساكن هنانو، الصاخور، الحيديرية، طريق الباب، وغيرها من الأحياء، حينئذ ظنّت كتائب «الجيش السوري الحر» بأنها ستكون قادرة على تحرير مدينة حلب كلّها وريفها خلال أسبوع من بداية المعركة، وهذا ما ظنّه الأهالي أيضاً، لكن الحال بقي على ما هو عليه بعد أكثر من عام ونصف العام من تحرير هذه المناطق.

مع بداية المعركة نزح معظم سكان الحي بسبب قصف طيران النظام، ومن بينهم عدنان وعائلته. عدنان غادر فيما رغبته كانت بالبقاء، لكن والده قال إنه سيبقى معه إذا لم يغادر. بعد شهر تقريباً، عاد إلى حيّه حيث شعر بـ «معنى الحرية»، فـ«المناطق محررة، وأعلام الثورة في كل مكان».

مع بداية ظهور السلاح في مدينة حلب، تراجع الحراك المدني، يقول الناشط في «حي الباب» مجد أحمد: «لقد شعر شباب الحراك المدني أنه لم يعد لهم دور، والغالبية أصبحوا متفرجين، وأنا واحد منهم». خرج مجد في العديد من التظاهرات، اعتقلته قوات النظام السوري 3 مرات في مدينة حلب، وهو اليوم يعمل في المكتب الإعلامي الخاص بالمجلس المحلي للمدينة.

أثناء عملية التحرير وبعد دخول «لواء التوحيد» إلى حلب، دخلت «جبهة النصرة»، ثم «الدولة الإسلامية في العراق والشام» وكتيبة «المهاجرين». «في البداية ومن منطق الحريات، قلنا ليهتف في التظاهرات كلٌّ بحسب قناعاته، لكننا في النهاية اختلفنا بخصوص اللافتات والمطالب، وبعد ذلك انفصلت التظاهرات»، يقول عدنان. يؤكد مجد كلام رفيقه، ويضيف: «اليوم هناك تظاهرات مدنية تطالب بإسقاط النظام، وتعترض في الوقت نفسه على الهيئة الشرعية والكتائب الإسلامية المتشددة، وتظاهرات يغلب عليها الطابع الإسلامي المتشدد تنادي بالخلافة الإسلامية».

من الواضح أن منطق الانضباط والغنائم يطغى على سلوك أفراد «النصرة» و«الدولة الإسلامية» أكثر من أي شيء آخر، فالمقاتلون لا

يتدخّلون بالتفاصيل اليومية لحياة الحيّ، إلا في حالات قليلة، قد يكون ذلك بسبب الفقر المدقع فيه وقلّة المكاسب الممكنة منه، لكنهم في الوقت ذاته يلتزمون مقرّاتهم، مع وجود متواتر لهم على بعض الحواجز كمحاولة لإثبات الوجود.

انضمّ عدد كبير من عناصر «الجيش السوري الحر» إلى «جبهة النصرة» و«الدولة الإسلامية»، لأنهما يمتلكان العتاد العسكري؛ يقول عدنان إن «المشكلة تكمن في أن «الجبهة» و«الدولة» لديهما القوة والسلاح على عكس «الحر»، لذلك لا نستطيع أن نطلب منهم الخروج من المدينة وريفها، لأني أظن أنه مع خروجهم في هذه المرحلة سنخسر المعركة»، لافتاً إلى أن «العديد من الكتائب اضطرت لرفع الشعارات الإسلامية من أجل الحصول على دعم».

يقترب مني عدنان قليلاً في نهاية الحديث، ويشير إلى هاتفه: «أرسلت لي حبيبتي رسالةً للتو، من 6 أشهر لم أرَها، فهي تسكن في المناطق المحتلة، كل ما أحلم به اليوم أن نتحرّر بشكل كامل، كي يتوقف القتل والدمار ويعود الجميع إلى منازلهم، حينئذ نستطيع أن نسير في الشوارع من دون أن يكون هناك احتمال لقنصنا، وأن أكمل دراستي في الفلسفة وأتخرج، أما في ما يتعلق بالمتشددين فنحن نستطيع الانتصار عليهم في الفترة القادمة».

أم حمزة «الذباحة»
سجّانة النساء في سجن الرقة الشرعي

2013/7/10

جاءت «أم حمزة» إلى الرقة بعد تحريرها، مرتديةً اللباس الباكستاني الشرعي، تغطي وجهها «بالنقاب» الأسود ما يجعله مقتصراً على نظارات طبية وسط قناع مشدود داكن. فوق الكتف، علّقت بندقية «روسية» وعلى خصرها ربطت السكين والـ«الكلبشات» وفي يدها كبل كهرباء، وفق وصف كثير من الشهود، وعلى رأسهم رمال نوفل، الصبية ذات الـ 26 عاماً، والتي كُتب لها أن تخوض جولات عدة معها بعدما تحوّلت قصتها إلى قضية رأي عام.

«أم حمزة» السجّانة الملقبة بـ«الذباحة»، «تشبه نساء الكوابيس» على حد تعبير رمال، فهي لا تتجول في شوارع المدينة كثيراً، إذ تمضي معظم نهارها في حراسة المعتقلات في سجن الهيئة الشرعية في الرقة.

ولكنها كما يصفها «أبو إبراهيم»، القاضي في الهيئة الشرعية، «امرأة مسلمة تسهر على حماية النساء في السجون والاعتناء بهنّ ليس غير».

بين «سجّانة ذباحة» و«امرأة حارسة» تتسع مساحة الإشاعات في المدينة المحررة، تغذيها ظروف صراع مستتر ومعلن بين طرفين يتفقان على أمر واحد: كراهية نظام الأسد، ويختلفان في كل ما عداه تقريباً. الأجندات المختلفة، الاستقطاب الإعلامي الهائل، الجوع إلى

السبق الصحافي، الرخيص أحياناً، كل ذلك يجعل إمكانية توخي حدود الموضوعية المعقولة مسألة صعبة.

كثيرون ممن التقيت في الرقة يتحدثون بصراحة عن حالات الجلد التي حدثت، والتي ظلت طي الكتمان منذ دخول الكتائب المتشددة، وتعززت هذه الحوادث بمقاطع فيديو رشح بعضها إلى مواقع الإنترنت، لكن وجهة نظر أخرى تنفي حدوث مثل هذه الوقائع جملة وتفصيلاً. فالقاضي الشرعي «أبو ابراهيم» ينفي ذلك، بذريعة أن «الحد لا يقام في الحروب»، مضيفاً أن «من المستحيل حدوث حالات كهذه، حتى أن رجالنا يمارسون ضبط النفس إلى أقصى الدرجات». ويبرهن على ذلك أن إحدى الفتيات قامت بارتداء ملابس فاضحة و«التمختر» أمام مقر جبهة النصرة في محاولة لاستفزاز الحراس، فما كان منهم إلا أن أغلقوا الأبواب وانسحبوا داخل المقر».

في بيت يشبه معظم بيوت الرقة التي زرت، استقبلتني رمال، الفتاة المحجبة التي صارت القصة في ذلك الأسبوع على لسان أهل المدينة، ورشحت بعض تفاصيل «حادثة الفناجين» إلى الفضاء الإلكتروني.

ملخص الحادثة أن مجموعة من الناشطين، أطلقت مع رمال نوفل مبادرة خيرية «رمضان الخير وزكاة الخير»، فقد قاموا برسم علم الثورة على فناجين قهوة وبيعها في إحدى الحدائق بهدف جمع بعض النقود لتمويل سلل غذائية توزع على العائلات الفقيرة خلال شهر رمضان.

تقول نوفل إنهم أثناء العمل، تقدّم إليهم أحد الملثمين وطلب منهم جمع الأغراض وإخلاء الحديقة خلال نصف ساعة، معرّفاً عن نفسه بأنه من الهيئة الشرعية. بالطبع لم تمتثل رمال وزملاؤها لهذا القرار التعسفي، فما كان من المسلحين المدججين بالسلاح وعددهم 15 إلا أن هاجموهم. تروي رمال: «أحد الأصدقاء المشاركين في المبادرة ادّعى بأنه المسؤول

خشية إيقافي، فقاموا باعتقاله وجرّوه إلى السيارة وهو يتلقى ضرباً مبرحاً خلال الطريق».

تشرح رمال وقد علقت ضحكة مُرّة على وجهها: «اتُّهمنا بجمع مال المسلمين من دون إذن، وأن علينا التقدم بطلب للهيئة الشرعية كي نحصل على الموافقة؛ كانت تلك تهمتنا التي أدت إلى اعتقال صديقي وضربه، واستدعائي في اليوم التالي وجَلدي».

بهدوء، تكشف رمال عن القسم الأسفل من جسدها، علامات السياط تغطي الجزء الممتد من الخاصرة حتى أسفل القدمين. تقول بأسى: «لم يكتفوا باعتقالي، لقد قاموا بجَلدي أيضاً».

على صفحتها على موقع «فايسبوك»، كتبت رمال تفاصيل ما حدث معها بعد الاعتقال، تماماً كما روتها لنا: «بعد الاعتقال طلب المحقق تسليمي لأم حمزة، قامت الأخيرة بترك «الروسية» مع الحارس الموجود على الباب قبل أن تجرّني إلى الزنزانة. هناك قامت بتقييدي، وبدأت بضربي بكبل الكهرباء على قدميّ وساقيّ. لقد كان شعوري مرتبكاً بين الصدمة والألم. لم أصدّق أن هذا يحدث معي في الرقة وأن من يقوم به ليست قوات النظام السوري». تضيف رمال بصوت مخنوق: «سحبت أم حمزة سكينها المعلق على خاصرتها وقالت: «أخرجي لسانك، سأقطعه لك. أدرت وجهي إلى الحائط، فعادت أم حمزة إلى التأكيد: أنا أذبح فعلاً، اطلبي من الله ألا تبقي الليلة هنا كي لا أعلقك على الحائط وأتسلى بك. كل ذلك حدث على مرأى ومسمع الحارس الواقف عند الباب».

مكثت رمال في زنزانتها ساعات قليلة، قبل أن يُتخذ قرار الإفراج عنها، لكن مع وصولها إلى بوابة المقر، تقول رمال: «سمعت صوت أم حمزة تناديني وقد وقف بجانبها أحد الملثمين، لقد طلبوا مني العودة إلى الداخل بذريعة أن أحد الشيوخ أقسم بعدم خروجي اليوم من زنزانة الهيئة، حاولت التملص لكن لم يكن هناك مفر من العودة إلى الزنزانة نزولاً عند قسم

الشيخ!». تضيف رمال: «أمسكت أم حمزة بيدي وقالت لي بصوت هادئ: «ما بدي أسمع صوتك مشان ما ضايقك، بتقعدي بالزنزانة بدون ما تعملي شي ما بقرب عليكي، إذا سمعت صوتك بدبحك!»، وجعلتني أعيد الدرس من ورائها». بعد ساعات، خرجت رمال من السجن تتابعها كلمات أحد أعضاء الهيئة الشرعية. «لم تقم بشيء، لكننا أردنا تأديبك، ولقد تمت مسامحتك».

على الطرف الآخر يصرّ قاضي الهيئة الشرعية أبو إبراهيم على نفي الحادثة من أساسها: «أقسم بالله أن ما تدّعيه رمال ليس إلا كذبة، كل ما نريده هو الحقيقة، لقد ارتكبت خطأ أن تحدثت مع المحقق والقضاة بطريقة جارحة، ورفضت تمثيل الهيئة الشرعية لها، لقد كانت تصرخ بصوت عال: «الهيئة الشرعية لا تمثلني»، ورغم ذلك سامحها الجميع». ويضيف القاضي موضحاً: «نوفل لا علاقة لها بالأمر، ونحن لم نقم باستدعائها، بل اعتقلنا صديقها وهو مشتبه به». يختم أبو إبراهيم حديثه: «علينا أن نكون صادقين مع أنفسنا أيضاً، الأهالي يريدون فصل الدين عن السلطة، وهذا أمر يستحيل حدوثه».

بين هذين الطرفين تقف «لجنة الحكماء» وهي لجنة مؤلفة من 8 أشخاص تضم أعيان مدينة الرقة، الذين يقومون بتحضير الانتخابات الخاصة بالمجلس المحلي ويلعبون دوراً توفيقياً بين الأهالي والهيئة، ليتحوّل اسمهم إلى اللجنة التحضيرية للمجلس.

يعتقد «أبو مهيار»، أحد مؤسسي هذه اللجنة، بأن «النصرة والأحرار أقوياء، ولا يمكننا إنكار حاجتنا إليهم اليوم، وبخاصة أن قوات النظام ليست بعيدة عنا، فضلاً عن عدم وجود ضغط مدني كاف لتسلم السلطة»، موضحاً أن الهيئة الشرعية هي «حالة صحية في حال وجود توازن قوى بين الكتائب، وسيادة الحالة السلمية، لكن في الرقة من الواضح أن هذا التوازن معدوم ما يجعلها تحت سيطرة النصرة والأحرار، وما يجعل قوانين الهيئة

تطبّق على الضعيف دون القوي، لذا لا يحق لنا التعليق على ممارساتهم ما دمنا عاجزين عن اقتراح بدائل».

لكن «أبو مهيار»، الرجل الخمسيني الذي اعتاد استقبال الأطراف جميعاً في منزله، بدءاً من شباب الحراك المدني ومقاتلي «الجيش الحر»، وأفراد الكتائب المتشددة، ما زال كما يبدو يتمتع بمخزون كافٍ من الأمل للخروج من هذه الأزمة، فهو يعلّق مستدركاً: «لم يعد الشباب يخافون من شيء، يخرجون في اعتصامات وتظاهرات أمام مقرات هذه الكتائب ومقر الهيئة الشرعية، هناك أمل حقيقي في الشارع».

بالتأكيد، لا تقتصر انتهاكات الهيئة الشرعية وممارسات الكتائب المقاتلة على ذلك، إذ يعاني «الرقاويون» الأمرّين من استيلاء «النصرة والأحرار» على الأملاك التي نزح عنها سكانها وتركوها خلفهم. ينفي بعضهم وقوع مثل هذه الحوادث، فيما يشدد آخرون على وقوعها مرددين عبارة: «بِكبروا عَ الملك وبياخدوه». الناشط والمدرس فراس النايف كان شاهداً على إحدى حوادث الاستيلاء التي وقعت في المدينة. أخبرنا أن أفراداً من «أحرار الشام» حاولوا «أخذ منزل جارنا الذي استأمننا عليه قبل سفره. حاولت منعهم وذهبت إلى مقرهم. هناك التقيت بالأمير وأخبرني أنهم سيأخذون المنزل بالقوة. قلت لهم: «مافي شي بيتاخد بالقوة»، وسرت متجهاً نحو الباب، فهجموا عليّ وقاموا بضربي»، يتابع النايف: «اقتادوني إلى غرفة التحقيق، ثم إلى الزنزانة. سمعت صوت أخي في الخارج وخشيت أن يقوموا بضربه». يتابع النايف بمرارة: «انتهى الموضوع بأن أفرجوا عني بعد ساعة، بعد أن قام أميرهم بجلدي». ويضيف أن «هناك 5 زنازين مليئة بالمعتقلين، من بينهم جنود منشقون، كبار في السن وشباب».

أطفال الجيش الحر: البنادق ثقيلة... لكننا سنقاتل

2013/7/22

يحمل بندقية فوق كتفه الصغير، مرتدياً ملابس عسكرية في ذلك المكان شبه المهجور إلّا من عناصر «لواء التوحيد» (أحد الألوية الأساسية المقاتلة في الجيش السوري الحر)، الذين يحمون ما تمّ تحريره من النظام السوري. أحمد البالغ من العمر خمسة عشر عاماً، هو واحد من مقاتلي الجبهة، القاطن على مرأى قنّاصة النظام بين المباني والشوارع المهدّمة.

روى لي أحمد حكايته بخجل، وبصوتٍ مُثقلٍ ببحة رجلٍ هرم: «أقاتل في هذه الجبهة منذ عام». لم يكن هو المقاتل الوحيد في طور البلوغ، ففي الكتائب المعارضة مقاتلون يافعون كثرٌ، تتراوح أعمارهم بين 15 و18 عاماً.

قصة أحمد بدأت يوم إصابته أثناء قصف النظام بلدته معرّة النعمان في إدلب، ونُقِل على إثرها إلى أحد المشافي الميدانية في حلب، لكنّه لم يتمكن من العودة إلى بلدته بسبب قطع الطريق في ذلك الوقت، فتوجّه إلى الجبهة وانضم إلى «الجيش السوري الحر». ويضيف الفتى الذي لم ينبت شارباه بعد: «في بداية الثورة شاركتُ في العديد من التظاهرات، لم أكن أفكر في حمل السلاح، إلى أن قُتل كثيرون من أفراد عائلتي، وتعرّضت للإصابة في بطني، فحملتُ السلاح لكي أدافع عن بلدي».

ينتهي الحديث مع أحمد ـ المقاتل المراهق ـ سريعاً، إذ كانت الكتيبة بانتظاره لتتحرك إلى نقطة تمركز أخرى. «لن أترك السلاح بعد سقوط

النظام، سأبقى مع «الجيش الحر»، الحاج عزيزي (قيادي في كتائب الحر) يعتني بي، والمقاتلون هنا أخوتي، وأنا أحبهم كثيراً».

حكايات الأطفال المقاتلين في سورية لم تعد مرتبطة بالقصص التي اعتاد الناس سماعها عن العنف الأسري والاجتماعي، فقد أخذت منحىً آخر. عندما تنتقل مساحة الطفل من الملعب إلى الميدان، من الألعاب إلى البندقية والقنابل، ويتحوّل العقاب من الحرمان من مشاهدة التلفاز بسبب تقصيرهم في دراستهم إلى الاعتقال والتعذيب والقتل، عندئذ يصبح للمسألة بُعد آخر. «هجم الأمن على مدرستي أثناء محاولتي أنا وبعض الأصدقاء تنسيق تظاهرة داخل المدرسة، ما اضطرني إلى الهرب، وتم فصلي من قبل الإدارة». هذه واحدة من الحكايات التي سمعناها هناك، والتي يتردد ما يوازيها على ألسن الكثير من الفتية المقاتلين.

يقول «أبو النصر»، الاسم الذي أطلقه عليه زملاؤه في الكتيبة، الفتى البالغ من العمر 16 عاماً، من منطقة الحيدرية في حلب، والذي انضمّ إلى «لواء التوحيد» قبل عام ونصف العام تقريباً: «النظام كان يقتلنا في التظاهرات، ونحن لم نحمل ضدهم حتى سكيناً، كنّا نواجههم بأصواتنا وهتافاتنا، وكانوا يردّون علينا بالرصاص والاعتقالات والتعذيب، أتمنى لو كنت أحمل السلاح حينذاك لكنت قتلتهم كما قتلوا أصدقائي».

اعتقلت قوات الأمن السوري الفتى «أبو النصر» في فرع الأمن الجنائي في مدينة حلب بسبب مشاركته في التظاهرات، حيث تعرّض لكل أنواع التعذيب. «لم أحمل السلاح فور خروجي من المعتقل، بل بقيت أشارك في التظاهرات، إلى لحظة دخول «الجيش الحر»، وكل ما أريده بعد سقوط النظام أن أكمل دراستي وأصبح إنساناً ناجحاً».

لم يعد الخوف من الموت هاجساً في المدن السورية المحرّرة. ثمة شيء من اعتياد وجوده بالقرب من الناس. هذه الحقيقة ساعدت في اتساع ظاهرة الأطفال المقاتلين الذين يحاربون مع «الجيش الحر»، فلا فارق بين

رجل ومراهق في الميدان، إلا في تلك اللحظات القليلة عندما تقترب منهم وتحدّثهم.

«علي» فتى آخر من فتيان الجبهة، كان أكثر قساوة في التعبير. نظر مدافعاً عمّا يقوم به قبل أن يُسأل بعد. وبصوتٍ حاد قال: «انظروا إلى كل هذه المباني الخالية، وكل هذا الدمار، نحن نحارب لإسقاط النظام كي يعود السكان إلى منازلهم ويعيشوا في أمان». علي البالغ من العمر 14 سنة، لا يشبه أترابه الآخرين من أطفال «الجيش الحر»، على الرغم من أنه حمل السلاح قبل شهرين فقط. يتحدث بثقة وبروح مقاتل شرس: «لستُ بعمر صغير لا يخوّلني حمل السلاح، أنا أملك القدرة على القتال، وعلى الرغم من أن عائلتي رفضت الأمر في البداية، إلا أنني لم أصغِ إليهم، وذهبت للانضمام إلى «الجيش الحر». لم أستطع أن أرى قوات النظام وهي تقتل كل من حولي. كان عليّ فعل ذلك». وأضاف: «البندقية ثقيلة على ظهري لكن عليّ أن أحملها وأشارك مع «الحر» الذي يدافع بكل ما لديه من أجل أن تنتصر الثورة، وحينئذ سألقي بها بعيداً».

إذا كانت ممارسات النظام وراء الكثير من ظواهر العسكرة التي تشهدها مناطق شمال سورية، فإن غياب الوعي الكافي عند بعض قادة الكتائب والألوية يجعل منهم شركاء بطريقة أو بأخرى في هذه الانتهاكات.

«لقد جاء معظمهم إلينا بعد أن خسروا عائلاتهم، إذ قمنا بالاعتناء بهم، هم أرادوا حمل السلاح لحماية بلدهم ولن نمنعهم من ذلك»، هذا الجواب الذي سمعته من قادة أحد الكتائب المرابطة. معظم الأطفال الذين قابلتهم جاؤوا إلى الكتائب غاضبين وساخطين إثر قصف منازلهم وإبادة عائلاتهم، مندفعين بغريزة الثأر والانتقام «الطفولية» من النظام. طالبوا بالسلاح لتحقيق هدفهم، فما كان من قادة «الكتائب»، إلا أن ضمّوا هؤلاء إلى صفوف المقاتلين البالغين واضعين بذلك حداً لطفولة كانت مرتقبة ولو بعد حين.

أمير سابق في «جبهة النصرة» عاد مُدرِّساً

2013/8/6

«أُبايعك على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثره علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، ما لم نرَ كفراً بواحاً عندنا عليه حجة من الكتاب والسنّة».... ما إن أنهى «أبو أسيد» كلماته هذه أمام أمير «جبهة النصرة» حتى أصبح من مقاتليها، ثم عُيِّن أميراً على «سرايا خالد بن الوليد» المتمركزة في ريف الرقّة قبل التحرير. هكذا فقط تحوّل عبد الباسط الحسين مُدرِّس الرياضيات، الناشط والمتظاهر، إلى أمير في «جبهة النصرة».

لم يتعدّ حلم الحسين الملقب بـ«أبو أسيد» نطاق المدرسة التي كان يدرِّس فيها وعائلته الصغيرة التي أخذت تتكوّن قبل الثورة بعام واحد فقط. وحين بدأت التظاهرات بالخروج في الرقّة كان من أول المشاركين فيها هو وزوجته وابنه الصغير، الذي لم يكن بلغ العام بعد، والذي طُلِب إلى التحقيق مع والده، إذ صوّره أحد رجال الأمن وهو على كتف والده محاولاً الهتاف في التظاهرة.

شكّل دخول الحسين إلى المعتقل شرخاً في علاقته مع معظم من حوله في الحي وفي المدرسة أيضاً، إذ تغيّرت معاملة الطلبة وعائلاتهم تجاه من اعتبروه في تلك المرحلة تهديداً لأمنهم أو خائناً عند البعض ممن يقفون في صفوف النظام، على حد قول «أبو أسيد»، الذي اضطر حينذاك

إلى إعطاء مادة الحاسوب فقط، في محاولة منه لتفادي الاحتكاك مع الموجودين في المدرسة، كما انسحب الطلبة من الدروس الخصوصية التي كان يدرّسهم إيّاها.

قبل خروج قوات النظام من الرقّة كان عبد الباسط الحسين على لائحة المطلوبين من قبل قوات الأمن السوري، وتحديداً بعد حادثة تفجير أحد الباصات الذي كان يقلّ مجموعة من الشبّيحة، فقد قام صديقه الذي كان يصنع معه المتفجرات، بإعطاء عدد منها لمن قام بالعملية. وأوضح «أبو أسيد» أن الأمن استدعى أخاه للتحقيق عن مكان وجوده، وعندما أنكر معرفته بمكانه، أخبروه بأنهم «سيعيدونني إلى عائلتي مقطّعاً إلى 4 قطع في حال قبضوا عليّ».

انضمّ «أبو أسيد» إلى «الجيش الحر» ليصبح مقاتلاً. لم يكن استخدام السلاح غريباً عليه، فهو تعلّم التعامل مع البنادق في معسكر الطلبة أثناء المدرسة، وقد كان تركيب البندقية التشيكية وفكّها والتصويب بها درساً من دروس حصة التربية العسكرية في مرحلتي الإعدادي والثانوي.

توجّه عبد الباسط إلى الحدود وعمل مع عناصر «الجيش الحر» في مساعدة اللاجئين السوريين وإيصالهم إلى الجهة التركية، كما أُوكِلت إليه مهمّة ملاحقة المهرّبين. لكنّه بعد أيام شعر أن جُلّ ما يقوم به «هو ملاحقة المهربين الذين هم من أهالي المناطق ذاتها، والذين لم يتغيّر عملهم عمّا كان عليه قبل الثورة»، لذلك لم يبقَ هناك أكثر من 15 يوماً.

قاتل «أبو أسيد» مع عدة كتائب. بدايةً مع «كتيبة صقور السنّة»، انتقل بعد ذلك إلى كتيبة «معاوية بن أبي سفيان»، ومنها أصبح مقاتلاً في كتيبة «أسامة بن زيد» التابعة لقيادة «لواء القسام»، لينتهي به الأمر أميراً على «سرايا خالد بن الوليد» التابعة للكتائب الإسلامية المتشددة. يضيف: «أنا إنسان ملتزم دينياً من قبل الثورة، لم يغيّر انضمامي إلى الكتائب المتشددة من هذا الأمر، وما زلت أتمنى أن أكون معهم، لأنهم أكثر الكتائب صدقاً من

غيرهم، وتقوم أغلب الكتائب الإسلامية بإنشاء معسكرات تدريب وهناك تتم المبايعة، هو خيار لا يُجبر أحد على القيام به، وأنا بايعت آنذاك جبهة النصرة».

خاض عبد الباسط الكثير من المعارك العسكرية ضد جيش النظام. ينزع «أبو أسيد» شخصيّته المدنية، حين تحدّث عن المقاتلين في سراياه بلغة القائد المفاخر: «معظمهم لهم قلب حديدي رغم كل الظروف والخطورة، ولم يكن هناك سوى شرط واحد يمكّن الشبان من الانضمام إلى السرايا التي كنت مسؤولاً عنها، وهو التزامهم بالصلاة، لأن عدم التزامهم بالفرض يؤجل النصر ويضعفه».

حرية الرقّة حررت «أبو أسيد»، الرجل الثلاثيني، صاحب اللحية المشذّبة من ثقل السلاح، إذ فضّل مبايعة «النصرة» وترك الكتائب المسلّحة، وعاد إلى صفوف المدنيين، ليؤسس مع مجموعة من المدرسين «اتحاد المعلمين الأحرار»، فهو يرى أنه «لم يعد هناك داعٍ لحمل السلاح داخل المدينة بعد التحرير، فحملُه في منطقة محرّرة هو تشبيح بحد ذاته، علينا العودة إلى أدوارنا السابقة في هذه المرحلة».

اليوم أسسّ مدرِّسو الرقّة و«أبو أسيد» واحد منهم، «اتحاد المعلمين الأحرار»، وقاموا بإجراء الامتحانات الدراسية بالتنسيق مع المناطق المحررة الأخرى في أربعة وعشرين مركزاً. يلفت «أبو أسيد» إلى أن الاتحاد يضمّ مدرّسين ومدرّسات «يعملون بشكل تطوعي»، و«سنقوم بإجراء امتحانات البكالوريا قريباً، نحن واجبنا كمدرّسين أن نتيح للشباب أن يتابعوا تعليمهم رغم كل الظروف».

ألغى «المعلمون الأحرار» التدريب العسكري ومادة القومية، كما قاموا بحذف «منجزات آل الأسد» من كتاب التاريخ، وذلك تحت إشراف لجنة مختصة من المدرسين القدامى. قام الاتحاد بإجراء بعض التعديلات على المنهاج تلك المرتبطة بالنظام فقط وإنجازاته، يتحدث «أبو أسيد» بتباهٍ

عن إجراء الامتحانات: «رغم كل الصعوبات التي واجهناها، سواء كانت متعلّقة ببعض المؤيّدين الذين حاولوا تخويف الأهالي من إرسال أولادهم إلى المدارس بحجة أن النظام يقصف مراكز التجمعات، أو مادية حيث لم يقم أحد بدعمنا، حتى الائتلاف الوطني السوري».

قد لا نستطيع أن نجزم بتعميم نموذج عبد الباسط، «أبو أسيد» سابقاً، على الجميع، فقد يرفض بعض المقاتلين التخلي عن سطوة السلاح، وقد لا نتفق معهم على مفهوم الدولة الإسلامية، ومن الممكن أن يكونوا قد أدمنوا الحرب ونارها. لكننا اليوم أمام مثال حي لرجل عاش الثورة بكل مراحلها بدءاً من الهتاف السلمي وصولاً إلى العصبة السوداء على الرأس، وعودة إلى الخيار المدني. هناك احتمالات عدة باتت أمام المناطق المحررة: الإسلاميون المتشددون، عمليات الاختطاف والجَلد، اعتصامات شباب الحراك المدني ضد الجبهة والدولة، الدعم المفقود من أطراف المعارضة السياسية الرسمية تجاه البنى التحتية. كل ذلك يضع الرقّة وغيرها من المناطق اليوم في حالة مخاض جديد لا أفق له حتى الساعة.

رزان زيتونة بعد تهديدها:
لم أشعر بالخوف... لكن بالمرارة

2013/9/24

رزان زيتونة، الناشطة الحقوقية والكاتبة السورية، والمنسّقة العامة لمركز توثيق الانتهاكات في سورية، الذي يسعى لأن يكوّن قاعدة بيانات لانتهاكات نظام بشار الأسد لحقوق الإنسان. مع بداية الثورة اضطرت زيتونة للتخفي بسبب نشاطها الإعلامي، ولا تزال حتى الساعة تواكب عن كثب كل ما يجري على الأرض في سورية.

زيتونة، وهي عضو مؤسس في لجان التنسيق المحلية في سورية، حازت جائزة «آنا بوليتكوفسكايا» للمدافعات عن حقوق الإنسان، وعلى جائزة «ساخاروف» الممنوحة من البرلمان الأوروبي بالاشتراك مع رسام الكاريكاتير السوري علي فرزات، تعرّضت في الآونة الأخيرة لتهديدات وحملات تخوين عديدة، لم يكن مصدرها النظام كما اعتادت، بل هذه المرة من طرف آخر لم يتقبّل فكرة ما تقوم به.

موقع «NOW» أجرى مع رزان زيتونة، الزميلة في الموقع أيضاً، هذا الحديث:

ـ ما هو مضمون التهديدات التي تعرّضت لها في الآونة الأخيرة؟

ـ نحن في ثورة. هناك فوضى وفراغ أمني. في مناطق أخرى تعرّض

نشطاء لما هو أكثر بكثير من التهديد وحملات التخوين. المميز في منطقة الغوطة الشرقية أنه لا يزال هناك حراك مدني فاعل، وأنها من أقل المناطق المحررة التي تشهد حوادث الفوضى والفراغ الأمني، بسبب تماسك كتائبها، ولأن الأغلبية الساحقة من المقاتلين هم من أهل المدن والبلدات المحررة نفسها، فضلاً عن قلة وجود الغرباء (داعش وأمثالهم) حتى اللحظة.

رغم جميع الأخطاء تبقى الغوطة الشرقية أجمل مثال للثورة السورية بوجهها الناصع. لذلك قلنا ونقول لا تتركوا الغوطة لمصيرها، فهي بحاجة إلى تقوية عناصر القوة فيها لتكون قادرة على مواجهة السلبيات التي واجهت بقية المناطق المحررة. بكل الأحوال، هناك دائماً من لم يستفيدوا من درس الثورة، ويعتقدون أن بإمكانهم استنساخ تجربة اللون الواحد والصوت الواحد. هذا مستحيل، الزمن لن يعود إلى الوراء. وهؤلاء سيسقطون كما سيسقط النظام. تهديد النشطاء واعتقالهم واغتيالهم بالآلاف من قبل النظام لم يؤدِّ إلى وقف الثورة أو تراجعها، فلماذا يعتقد البعض أنه بمثل هذه الممارسات قد يفرض رؤيته وخطّه ولونه؟!

ـ هل تشكّل حماية المجتمع الأهلي حصانة كافية لك من هذه التهديدات؟

ـ موضوع الحماية، في أجواء الثورة بالنسبة لمدني لا سند عسكرياً له، ليس بالأمر الواقعي. لكن المهم التضامن الواسع والمدهش من قبل الفعاليات المدنية والأهالي على الأرض. أشعر بالقوة «الرمزية» التي قد لا تستطيع الوقوف في وجه تهديدات جسدية، لكنها قادرة على الوقوف في وجه جميع الإحباطات، وقادرة على مدِّنا جميعاً بطاقة للاستمرار حتى آخر لحظة. المدني للمدني سند. وقوة التضامن بين الفعاليات المدنية وبينهم

وبين الأهالي ضمانة أساسية لآلية إصلاح من داخل الثورة ضد السلبيات والأخطاء الطارئة. وهو بالدرجة الأولى قوة وضمانة لتلك الفعاليات نفسها.

حتى على الصعيد العسكري، كان هناك تضامن من ألوية وكتائب من أقصى الغوطة إلى أقصاها. على الصعيد الشخصي، أشعر بالامتنان الشديد، لجميع الأصدقاء الذي بادروا إلى حملة التضامن في الداخل وفي الخارج. أعجز عن شكرهم كفاية. والشكر أيضاً لجميع المجالس المحلية والمكاتب والنشطاء الذين انخرطوا فيها. أنا مدينة لهم بالأمل الذي منحوني إياه وبالمحبة التي أحاطوني بها.

ـ هل هناك فصائل متشددة في منطقة الغوطة الشرقية على غرار «داعش» و«النصرة» وسواهما؟

ـ هناك وجود لجبهة النصرة، ومؤخراً بدأ ظهور خجول لداعش. لم أسمع حتى اللحظة عن ردود فعل من الكتائب تجاه وجود داعش في منطقة الغوطة الشرقية. لا أعلم كيف سيتم التعامل مع الأمر، خاصة في ظل التطورات الأخيرة في أعزاز وغيرها. أعتقد أن الأهالي يعوّلون على جيشهم الحر للتعامل مع الأمر باكراً وقبل فوات الأوان.

ليس من السهل على الكتائب أن تترك جبهاتها وأن تفتح معارك جانبية. هذا مفهوم تماماً. خاصة أن معظمها يعاني من قلة الدعم. وأخص بالذكر تلك الألوية والكتائب التي لا تحمل أجندات باستثناء إسقاط النظام. معظمها لا يتمكن حتى من دفع رواتب لعناصره. من يخشى من الفوضى ومن إرهاب «داعش» عليه أن يفعل شيئاً لمساعدة هؤلاء للاستمرار، بدل الندب والإدانة ورثاء الثورة.

ـ ما نوع العمل الذي تقومين به في هذه الفترة في الغوطة؟

ـ أول ما أقوم به شخصياً هو أنني «أعيش» في الغوطة الشرقية، مواطنةً

في جزء محرر من بلدي. أما على صعيد العمل فهناك شقّان، الأول في مركز توثيق الانتهاكات في سورية، بإعداد التقارير الميدانية حول الأوضاع في المنطقة كما فعلنا بالنسبة لتقرير ضربة الكيماوي وسواها. الجانب الآخر هو دعم الجانب الخدمي في المنطقة لإعانة السكان على مواجهة الحصار الذي يفرضه النظام عليهم لتركيعهم.

الغوطة تذوي. الثروة النباتية والحيوانية في طريقها إلى كارثة. الجوع والأمراض تتهدد الآلاف. هناك بعض الأمور قد تخفف إلى حد ما من آثار الحصار وتعين الأهالي على مقاومته، وتزيح عبئاً عن المقاتلين على الجبهات. بقية المناطق المحررة تُركت حتى استفحلت فيها المشاكل قبل أن تبدأ محاولات الإحاطة بها، ما أدى إلى عجز شبه كامل.

اليوم الفرصة مؤاتية في الغوطة، بوابة دمشق، للعمل على الإحاطة قدر الإمكان بتلك الامور كي تبقى المنطقة قادرة على مواجهة الأسوأ. على «الائتلاف الوطني» أن يتوجه بمشروع متكامل في منطقة الغوطة.. على الجهات المانحة أن تكرس جزءاً ملحوظاً من نشاطها لمساعدة هذه المنطقة على الصمود. إيجاد حلول للقمامة على سبيل المثال، فمهما كانت مكلفة مادياً، فستكون أقل كلفة من معالجة أوبئة وأمراض وخسارة في الأرواح. مساعدة المجالس المحلية على إدارة شؤون مناطقها سيكون أقل كلفة بكثير من معالجة الفوضى التي ستنجم عن غياب فعالية تلك المجالس. وقيسي على ذلك جميع الأمور الأخرى.

ـ هل تشعرين الآن بالخوف؟ بالندم؟ هل تفكرين بالرحيل؟

ـ لم أشعر بالخوف، لكنني أحسست في البداية بكثير من المرارة! فكرت لوهلة بالرحيل إلى مكان يعزلني ولا يمنعني من استمرار العمل في ما بدأت به. لكنها كانت لحظة إحباط لا أكثر.. أنا لست في «مهمة» هنا.. كما قلت، أنا أعيش! وعندما لن يكون هناك ما أفعله سأغلق باب

بيتي عليّ، بيتي في المنطقة المحررة من بلدي.. فضلاً عن أنني ارتبطت عاطفياً بالعشرات من الأصدقاء الذين أعجز عن إخبارهم كم أحبهم، وكم أحب الثورة بهم، وكم أرى سورية في عيونهم.. مدنيون ونشطاء وثوار على الجبهات.

لا يفكر أحد أن يصطاد في المياه العكرة ويحاول إدانة ثورتنا لبعض ما يحصل فيها، ومنه ما هو كارثي فعلاً كما يحصل في الرقة وأعزاز. سنتان ونصف عمر ثورة يتيمة هي معجزة في استمرارها وصمودها وجميع تفاصيلها وأبطالها ممن استشهدوا أو لا يزالون قيد الاعتقال أو على الجبهات أو في أعمالهم المدنية والإغاثية والخدمية.

«داعش» من رحم النظام وإليه..
وقادتها خرّيجو سجون الأسد

2013/11/9

«طلبوا هويّتي، سألوني عما إذا كنت أعمل مع الجيش السوري الحر أو المجلس العسكري»، قال المصوّر عبد الحكواتي، راوياً قصته يوم أوقفه رجلٌ ملثّم على الحاجز عند مدخل مدينة الرقّة السورية المحرّرة «مبدئياً». تحدّث معه الرجل بلهجة عراقية: «لا يمكنك الدخول إلى الرقّة قبل الحصول على موافقة الأمير!».

ويكمل الحكواتي حديثه: «بعد قليل جاءني ملثّم آخر سألني مع أي مؤسسة أعمل، وما هي القنوات الإعلامية التي أتواصل معها. أخذ مني عنوان الشخص الذي سأذهب إليه في الرقة، وسبب زيارتي له، ثم منحني الإذن بالمرور. أحسستُ بأنني أدخل بلداً غريباً، أزوره لأول مرة، كأننا عدنا إلى أيام النظام السوري بكل استبداده وقمعه، لكن بشكل إسلامي متطرف».

تمخّض عنف نظام الأسد فجاءنا مولوده «داعش»، التي بسطت سيطرتها بصيغة عقائدية حدّها السيف على المناطق التي سُمّيت يوماً بالمحررة. حمل الحكواتي كاميرته في بداية 2012 وبدأ بتصوير أفلام وثائقية قصيرة في منطقة الشمال السوري. «في الميادين بدير الزور، جاء رجل ملثم وشدّني من شعري وأخذ يشتمني ويهدّدني بالذبح، أدخلني إلى

الهيئة الشرعية، حاول صديقي التدخل وقال لهم: نحن أولاد ثورة واحدة، فأجابه الملثّم: أنا ما دخلني بكل ثورتك».

ويتابع الحكواتي: «بعد أكثر من 5 ساعات تعرضنا فيها للإهانة والتهديدات داخل المحكمة الشرعية، جاء أمير جبهة النصرة، ألقى نظرة على الصور التي التقطناها وذهب، تدخل المحامون الأحرار ومجلس المدينة وأُطلق سبيلنا. وقبل مدة أرسلوا لي تهديداً بقطع رأسي عن جسدي».

منذ أيام أصدرت الدولة الإسلامية في العراق والشام بالاتفاق مع الهيئة الشرعية بياناً تضمّن جدول «المحرّمات» و«طرق القصاص والعقوبات» التي ستنال من كل من يخالف تعليماتها، وبضمنهم من يلقّب «داعش» بهذا الاسم.

«كافرة، علمانية، زنديقة، هي الكلمات التي وصفني بها عناصر «داعش»، مع نعرة بالبندقية، أثناء مشاركتي في الاعتصامات، لم أخشَهم، كنتُ أقول لهم: أنتم رجال النظام بلحية وقناع». سعاد نوفل من أوائل الناشطين في محافظة الرقة قبل تحرير المدينة من جيش النظام السوري وبعده. عندما تتحدث إليك تشعر بقوتها وصدقها وعفويتها. «كنتُ أحمل الكرتونة كل يوم، أكتب عليها ما حدث في اليوم السابق وأرفعها في وجه الملثمين».

خرجت تظاهرات كثيرة رداً على قيام «داعش» بإنزال الصليب عن كنيستَي سيدة البشارة وكنيسة الشهداء وإحراق محتوياتهما. فكان الردّ على هذه التظاهرات إطلاق النار عليها واعتقال المتظاهرين. «حملتُ كرتونة كنت رسمت عليها الهلال والصليب معاً، وكتبت عليها «دولة الشرّ». هجم عليّ شاب عمره 16 عاماً تقريباً، تحدث بلهجة تونسية وقال: هذه المرأة تدافع عن بيوت الكفرة والنصارى، وهي كافرة مثلهم وحدُّها القتل، بعد ذلك جاءت سيارة فيها عدد من المسلحين التونسيين وأحاطوني، قاموا بتلقيم البنادق وتوجيهها نحوي»، أضافت نوفل.

في 2013/9/29 قُتل 15 طالباً من مدرسة التجارة في الرقة، بسبب قصفها بطيران النظام، تقول نوفل: «توجهت إلى مقر الدولة، وانهالت عليّ الشتائم من التونسيين الملثمين. سحبوا اللافتة من يدي، فهرعت مسرعة إلى بيت إحدى صديقاتي. اليوم أنا ملاحقة من قبل داعش التي هدر أميرها دمي، وهدّد عائلتي. ما لا أفهمه لماذا يقصف النظام المدرسة ولم يقصف مراكز الأمن التي تتمركز فيها داعش وجبهة النصرة؟».

أبحاث كثيرة وتقارير تفيد بأن سجون النظام هي البطن التي أطلقت معظم الإسلاميين المتطرفين الذين أصبحوا اليوم قادة «داعش» و«النصرة» وغيرهما.

يقول الناشط ماهر إسبر: «رأيت سجناء كانوا معي في سجن صيدنايا بمعظم الفيديوهات التي نُشرت على اليوتيوب منذ بداية ظهور جبهة النصرة، ثم داعش والكتائب الإسلامية الأخرى».

اعتقلت قوات النظام السوري ماهر إسبر في 2006، وحكمت عليه بالسجن لمدة سبع سنوات، قضى خمساً منها في سجن صيدنايا قبل أن يشمله العفو الرئاسي الذي صدر في بداية الثورة.

يؤكد إسبر أن «هناك شخصاً رأيته في فيديو مبايعة 14 عشيرة في الرقة لدولة الإسلام في العراق والشام، وهو كان ينام في السرير فوق سريري تماماً. لقد أطلق النظام سراح هؤلاء على الرغم من تورطهم بعمليات قتل حتى داخل السجن، وكل من رأيتهم أصبحوا جزءاً أو قادة لداعش مثل نديم بالوس، أو للنصرة مثل بهاء الباش، أو لجيش الإسلام مثل زهران علوش، أو حسان عبود لأحرار الشام، وأحمد عيسى الشيخ لألوية صقور الشام».

ازدادت عمليات خطف النشطاء والإعلاميين والمصوّرين من قبل

«داعش»، التي تسير على نهج النظام السوري باعتقال كل من يحمل الكاميرا وقتله، إذ خطفت في الآونة الأخيرة المصور زياد الحمصي بتاريخ 2013/10/28 في ريف الرقة.

زياد.. ناشط من دوما، والده معتقل في سجون النظام، ووالدته محاصرة في معضمية الشام بريف دمشق. أسماءٌ عديدة نُشرت لإعلاميين وصحافيين اختفوا في المناطق المحررة، واكتُشف لاحقاً أنهم في قبضة الدولة الإسلامية في العراق والشام، مثل الصحافي عبيدة البطل، وفريق «الأورينت» في إدلب وريفها، والصحافي اللبناني سمير كساب، وفريق «سكاي نيوز» في حلب وغيرهم، ولم تتوقف داعش عند الخطف بل بدأت بتصفية الإعلاميين، وكان آخرهم الصحافي محمد سعيد في حلب.

بتاريخ 2013/8/14 خُطِف الناشط المصوّر محمد نور مطر من مواليد 1993 في الرقة. يقول الصحافي عامر مطر، شقيق محمد نور: «خطفت داعش أخي للمرة الثانية، ولم نستطع الحصول على أية معلومات عنه حتى اللحظة، اختفى محمد نور خلال معركة الدولة الإسلامية في العراق والشام مع «لواء أحفاد الرسول» في 14 آب الماضي بالرقة. وجدنا كاميرته متفحّمة في المكان ولا أثر له، حينذاك بحثنا في مشفى الرقة الوطني بعدما وصل نبأ وصول الجثث والأشلاء إليها، لكننا لم نجد شيئاً يدلنا إليه، ليصلنا بعد ذلك خبر وجوده في سجن داعش».

محمد نور مطر، ناشط إعلامي من مدينة الرقة، صوّر العديد من الأفلام التي عُرضت على قنوات التلفزة، منها فيلم قصير بعنوان «سقط الكابوس هنا»، وآخر بعنوان «أعرف قبري جيداً»، وله فيلم قيد الإنجاز عن تحرير مدينة الرقة بعنوان: «جثة واحدة هناك».

«أبو علي» حامي سيف الدولة في حلب بقبضة «داعش»

2013/11/27

علمتُ منذ أيام أن الدولة الإسلامية في العراق والشام خطفت قائد «جبهة سيف الدولة» في حلب «أبو علي»، الرجل الذي كنتُ سجّلت مقابلة معه في تموز 2013 ولم أنشرها. أتذكّر انطباعي الأول حينذاك جيداً. حدّثني عن الموت باستهتار وشجاعة. شعرتُ يومئذ بمزيج من الإعجاب والمبالغة. صوته العالي وكلماته الواثقة تُشبه خطواته.

خبر اختطافه شكّل لحظةً غريبة، فـ«أبو علي» من أجسر المقاتلين. كان على يقين أن الدولة الإسلامية في العراق والشام وغيرها من التنظيمات المتطرفة لن تقف في وجه رجال «الجبهة»، لأنها تعلم كما قال إن ذلك سيهدّد تمركز الجيش السوري الحر الذي سيردّ على ذلك.

مساء أمس وصلني خبر يؤكد إعدام «أبو علي» من قبل داعش. لا تزال الأخبار تتضارب حول مصيره، لكنّ هذا لن يغيّر حقيقة مَن هو هذا الرجل وكيف بدأت قصته.

«خرجت مع 20 ألف متظاهر قبل رمضان 2012 بثلاثة أسابيع، كنتُ المسلّح الوحيد بينهم، قتل النظام 27 من المتظاهرين السلميين في ذلك اليوم، ما اضطرني إلى إطلاق الرصاصة الأولى في منطقة صلاح الدين، وأصبت اثنين من قوات النظام». حمل القائد العسكري في سيف الدولة «أبو

علي» السلاح قبل وصول الجيش الحر إلى مدينة حلب، وذلك بعد خروجه في المظاهرات، ليشكّل إثر ذلك مجموعة صغيرة نفّذ معها عمليات اغتيال لضباط تابعين لجيش النظام.

تحدّث الرجل النحيل طويل القامة ذو الملامح القاسية، المضمّد من إصابات معركة خرج منها في الليلة السابقة: «لم أحمل السلاح رغبة في الانتقام ممّا فعله النظام مع عائلتي، بل لأننا شعب نحب الحرية، كنت على يقين من أن النظام لا يفهم لغة الحوار والتفاوض والنقاش، وهو من بدأ بالقتل والاعتقالات والتعذيب».

في عام 1979، وجد أحمد صليبة (أي «أبو علي») نفسه هو ومَن تبقّى من عائلته مُجبَرين على الانتقال إلى حلب، وترك منطقتهم الصليبة في اللاذقية، بعدما سجن النظام السوري والده ووالدته على خلفية انضمام ولديهما، شقيقي «أبو علي»، إلى تنظيم الإخوان المسلمين. يقول أبو علي: «خرجت والدتي بعد عام ووالدي بعد 6 أعوام، وأخي بعد 10 أعوام، أما أخي الثاني فلم نسمع عنه أي شيء حتى الآن، حاولنا لسنوات ممارسة حياتنا بشكل طبيعي، لكن ما بدا طبيعياً في ذلك الوقت حمل خوفاً لم يتبدد حتى بداية الثورة».

منطقة سيف الدولة في حلب، تشبه الأمعاء المقلوبة إلى الخارج، حالها حال مناطق عديدة في حلب تحوّلت إلى جبهات بين «الحر» والنظام. غرف النوم، غرف الجلوس، الحمامات، تمديدات الماء والكهرباء، الملابس وألعاب الأطفال، الكتب والأوراق.. كل شيء فيها تراه دون أن تطأ قدماك جوف الأبنية، تشعر بأنك تقتحم قصص سكانها وحياتهم اليومية عند مرورك إلى الشارع الآخر عبر غرفهم وأغراضهم الشخصية المتناثرة هنا وهناك بين ركام التفجيرات ومخلفات القنابل، بينما تستمع إلى رصاص القناصة يتردد في شوارع المدينة من الطرف الآخر.

صباح 28 تموز 2012، أعلن الجيش السوري الحر سيطرته على حي

صلاح الدين في حلب بعد اشتباكات عنيفة مع قوات النظام، يقول أبو علي: «خضنا معركة «شارع 15» على أوتوستراد الحمدانية الذي حشد فيه النظام قواته، ومنها حررنا مناطق عدة وتقدّمنا أكثر وأكثر وأصبحنا أكبر وأقوى»، ويكمل: «لم يكن هناك ما يسمى بالكتائب أو جبهة النصرة أو أحرار الشام أو داعش أو أبو الأيوب الأنصاري وغيرهم. بعد منتصف رمضان بدأت الكتائب الضخمة ومن ذكرتهم سابقاً بالقدوم مموّلين ومدعومين بالسلاح والعتاد».

وأضاف: «نحن لا ننكر ما قامت به جبهة النصرة وأحرار الشام وغيرهما في المعارك، وعلى الرغم من اعتراضي على طريقة تفكيرهم وشكل الدولة الإسلامية التي يريدون، إلا أنني أرى أن هذا الأمر مؤجل لما بعد انتهاء الثورة».

يعتمد الجيش السوري الحر في جبهة سيف الدولة على الأسلحة المحلية الصنع والبدائية مثل «النقيفة»، التي يقوم «أبو علي» بصنع بعض منها. «الذخيرة والسلاح الذي نملكه بدائي، إذ نقوم بتصنيع معظم الأسلحة من أدوات بسيطة، في حين تملك جبهة النصرة والدولة الإسلامية في العراق والشام مستودعات ضخمة من الأسلحة والذخيرة تكفي لتحرير سورية»، قال مشيراً إلى أن «هذه الفصائل تقوم بضرب الأرياف لسهولة السيطرة عليها إلى جانب الغنائم، فمن يحصل على الدبابات والسلاح والمال لن يرابط على الجبهات».

يروي «أبو علي» حادثة اصطدامه الأولى مع أحد عناصر «داعش»: «أوقفنا على حاجز دار عزة رجل تونسي، اقترب من الشاب الذي معي في السيارة وسأله: «أنتم جيش حر؟»، نقرت بأصابعي على الشباك وقلت له: «بتروح بتضبّ غراضك وبتطلع على بلدك، هي بلدي مو بلدك». حينئذ صمت وأكملنا طريقنا»، مضيفاً: «أنا لا أقبل أن يتحكّموا بنا. نحن بالنسبة لهم كفَرة، أذكر عندما كنّا جميعنا في الجبهة بعد تحريرها، وبشكل مفاجئ

رأيت أحرار الشام وبكري عمارة والمهاجرين وجبهة النصرة وغيرهم قد حملوا أمتعتهم ورحلوا وهم يقولون «الكفرة يقتلوا بعض»».

في مستودع تحت منزله، وضع «أبو علي» ممتلكات السكان التي تركوها خلفهم في صناديق كتب عليها أسماء العائلات في غرفة «الأمانات» يحرسها هو ومقاتلوه. يعلّق على ذلك: «قمنا بجمع الممتلكات الخاصة بأهالي المنطقة الذين خرجوا من منازلهم من دون أن يحملوا معهم سوى أرواحهم، بسبب القصف العنيف من جيش النظام الذي دمّر الأحياء السكنية بالمدفعية والطيران الحربي». يحمل أبو علي من أحد هذه الصناديق أساور وقلائد من ذهب وهو يقول: «هذه أمانة عندنا حتى يعود أصحابها، نحن هنا لنحمي البلد لا لنسرقه كما يقول البعض».

يعيش في الجبهة مع زوجته، وهي عضو في المجلس العسكري، وأولاده الثلاثة: «أنا وزوجتي ما زلنا نعيش علاقة حب بعد عشرين عاماً، لن أتخلى عنها». يمد يده باتجاه النافذة المهشّمة ويقول بشكل اعتراضي: «انظري إلى تلك البناية أمامنا، هناك يتمركز العدو»، ويعود ليكمل: «وقفت زوجتي إلى جانبي وشاركتني الكثير من العمليات التي قمت بها، لذلك سنبقى معاً». ويتابع: «على سورية أن تكون البلد الذي أستطيع أن أفعل فيه ما أشاء، كما لو أردت أن أذهب إلى البحر وأنا أرتدي «الشورت» وزوجتي بـ«البكيني»، هذا بلد متعدد الطوائف لا حواجز بيننا، في حال ذهبتِ إلى منطقتنا في حارة الأميركان في الصليبة باللاذقية أتحدّاكِ أن تميّزي بين مسيحي ومسلم، هذا هو الشعب السوري».

انتبه... أمامك هاون

2013/12/6

على الرغم من أن البقاء داخل المنزل في العاصمة دمشق يبدو الخيار الأمثل في ظل الأحداث الجارية، إلا أنّ متطلبات الحياة اليومية تفرض نفسها على سكان العاصمة، فاحتمال وقوع قذيفة هاون أمامك أو خلفك أو حتى فوق رأسك، قائم كل الوقت، لذا لا بدّ من التفكير مطولاً في انتقاء الشوارع والطرقات التي يجب المرور بها، وتحديد الجهة الآمنة من الرصيف في تلك الشوارع، إذ أصبحت عملية الخروج إلى الشارع مرتبطة بتحضيرات واستعدادات لا بدّ منها.

يوميات دمشقية أغفلتها وسائل الإعلام التي تتصدر شاشاتها أو صفحاتها الأولى أعداد القتلى، إضافة إلى أخبار المجموعات المتطرفة الناشطة في سورية. مي فتاة في العشرينيات أخذت قراراً واضحاً بالبقاء داخل دمشق مع زوجها، تقول: «في بداية الأحداث كنت أشعر بالخوف. عندما بدأ الهاون يسقط بشكل يومي في «الشام»، كنت أمشي متلفتة حولي، أحدّق في السماء، وأنا أتخيّل سيناريوهات مختلفة لردّة فعلي في حال سقوطه بقربي. ومع مرور الوقت لا أدري كيف تلاشى الخوف من الهاون. يبدو أنني قد اعتدته».

وتضيف مي: «ما زلت عند مروري في المناطق التي تتعرض لضربات الهاون بكثافة أحدّق في وجوه السكان لأحفظها، فلربما شاركتهم المصير

ذاته في هذه اللحظة. وأفكر بالتفاصيل التي ستساعدهم في تحديد هويتي بعد أن أتحوّل إلى جثة متفحمة أو أن أساعدهم لأتعرف على هويّة من أحب».

في دمشق، حيث لا يزال قلب المدينة معزولاً تغزوه مظاهر احتلال أمني جائر، المدينة الشاهدة على القصف المدفعي والجوي الكثيف لما حولها ولمحيطها وبعض أحيائها، «الشام» التي تسمع وترى وتطلَق منها ما يدمّر، تتعرّض منذ أشهر لضربات يومية من قذائف الهاون والتفجيرات.

يوم الأربعاء 6 تشرين الثاني 2013 «يوم الهاون» كما أطلق عليه البعض، يقول أحمد الذي غادر دمشق ليلتحق بإحدى الجامعات في أوروبا: «قمت بدراسة خط سيري مسبقاً بناءً على احتمالات سقوط القذائف، مشيتُ الى الجهة اليسرى، لتكون الأبنية التي على يميني في وجه القذائف، وبعد أن وصلت إلى منتصف شارع بغداد سمعت صوتاً هزّ المكان كلّه، ورأيت الدخان يتصاعد حيث كنت قبل قليل، نظرت إلى بائع المازوت الذي كان واقفاً بجانبي يحدّق في الاتجاه ذاته قلت له: «إنشاالله ما يكون حدا تأذى، والله يستر من وحدة تانية».

«بالشام ماعم يصير شي»، الجملة التي ما زلنا نسمعها حتى اللحظة. ربما هي صحيحة مقارنةً بالمحافظات الأخرى، لكن سكان هذه المدينة يتعرّضون للموت والاعتقال والحصار الأمني وتقسيم الشوارع بحواجز يحرسها في كثير من الأحيان مراهقون تحوّلوا إلى شبيحة وعسكر.

يروي أمجد قائلاً: «أمس سمعت صوتاً قوياً يبدو أنه كان قريباً جداً، شممت رائحة البارود وتجاهلته، وقررت أن أذهب إلى عملي. ما إن وصلت هناك حتى بدأت أصوات القذائف تصدح وتقطع حديثي اليومي مع زملائي. غزت رائحة البارود أنفي، لكنني أكملت الحديث اليومي، وبعد أن خرجت من العمل، وأثناء سيري مبتعداً، بدأت أشعر بضعف في ركبي، لكن لا وقت للخوف».

أمجد الثلاثيني الذي يهز رأسه نافياً بشكل عفوي عندما يسأله أحدهم إن كان سيغادر دمشق، يقول: «لن أغادر البلد، لا نقاش في هذا الأمر». وفي ما يتعلق باحتمال الموت لم يعد الأمر كما كان عليه في البداية، أضاف: «عندما بدأنا نصادف الهاون والجرحى والقتلى والدماء في المدينة، بعد فترة أصبح التعامل معه أمراً لا إرادياً، وأن تنتهي حياتك في أية لحظة لم يعد موضوعاً نتحدث فيه مع من حولنا أو مع أنفسنا».

فكرة الموت الصادمة لم تعد موجودة في سورية، كذلك في العاصمة أصبح الحديث عن احتمال وقوعه أمراً عادياً وبسيطاً إلى هذا الحد، لم يعد سقوط الهاون حدثاً ينفع لقصة مثيرة أو لحكاية يتناقلها سكان المدينة. أصبح الموت عادياً، مجرد حدث متكرر يتم ذكره ونتائجه في حديث يومي عابر أو ليُكتب على صفحات «الفايسبوك» بنفَسٍ لا يخلو من السخرية.

«صباح اليوم دخل هاون إلى المطبخ، لم يحدث لي شيء، لكن هناك 3 عناصر أمن صعدوا إلى البيت ليكشفوا على مخلّفات القذيفة وسرقوا هاتفي الشخصي». آخر قال: «سقط هاون على الشرفة فوق منزلنا، أنا لم أمت لكن ماتت جارتنا، وقُطعت رأس السلحفاة خاصتي».

وبعد السؤال عن الحال في مكالمة هاتفية، تكون الإجابة في معظم الأوقات: «أتذكرين بائع النظارات جانب مدرستك؟ لقد مات بالهاون»، أو «سقط هاون على المحل الذي كنت فيه قبل قليل»، وأخرى تقول: «دمّر الهاون سيارتي أمام المنزل»، وآخر يسأل: «أتذكر العجوز الذي يركن سيارات الشركة؟ أخبرني زميله أنه خسر قدمه عندما وقع الهاون على مقربة منه.. يجيب: الله سترو، منيح إنو لسّاتو عايش!».

«رزان زيتونة» امرأة تتمرن على العدالة

«شهادات من رفاق رزان زيتونة الذين عايشوا نضالها المدني»

2013/12/14

داخل أحد الأبنية في العاصمة السورية دمشق، فُتح باب المنزل ببطء شديد. أطلّت فتاة ثلاثينية من الباب بحذر بادلتُها إياه على الفور. الموقف لا يحتمل الخطأ. تتدخّل «هرّة» شقراء وتُخرِج رأسها من الباب، وللحظة قررت أن أستدير وأعود أدراجي مؤنبة نفسي على «دخولي إلى البناء الخطأ للمرة الثانية، وعدم تدقيقي في العنوان الذي أرسلَتْه لي و..»، قبل أن أتحرك نادتني باسمي.. حملت نفسي بهدوء ودخلت إلى المنزل. فأنا لم أكن قد التقيتها وجهاً لوجه قبل آب 2011.

الفتاة العنيدة، الواضحة، صاحبة القلب الطيب، هي الانطباعات الأولى التي تتركها رزان زيتونة لديك، وتتراكم هذه الصفات يوماً بعد آخر. رزان هي أكثر شجاعةً وصلابةً وصبراً مما ظننت.

منذ أيام، خطف ملثمون رزان زيتونة وفريق عملها: (وائل حمادة، سميرة الخليل، وناظم الحمادي) من مركز «توثيق انتهاكات حقوق الإنسان في سورية»، في دوما بريف دمشق.

«رزان من أقرب الصديقات. شريكة الحلم والاتجاه والتفكير»، يقول الكاتب السوري ياسين الحاج صالح، «هي أشجع النساء السوريات

أو الأشجع إطلاقاً. وإذا تمثّلت الثورة السورية بشخص واحد فقط، فهذا الشخص هو رزان، هي أكثر الناس تورياً عن الواجهة، وأكثر من يتطابق فكره مع عمله وممارسته».

بدأت رزان زيتونة (مواليد 1977) عملها ناشطةً حقوقية بعد تخرّجها مباشرة في كلية الحقوق. تركّز نشاطها آنذاك في متابعة المعتقلين وأُسرِهم وتوثيق انتهاكات النظام. «أعرف رزان منذ أكثر من 15 عاماً. كانت مريضة جداً في أول أيام الثورة، فطلبتُ منها أن ترتاح، وأجابتني: قضيت عمري عم إستنى هاد اليوم، بدّك ياني ارتاح؟!»، تقول منى، الأم التي تحوّل منزلها إلى حضن للناشطين الهاربين من الأمن.

في منزل الأم منى اجتمعوا معاً؛ رزان وناظم ووائل وسميرة وياسين وغيرهم كثيرون، «رزان إنسانة عنيدة بطلب الحق، شفافة ورقيقة إلى حد الهشاشة أمام المظلوم، الثورة لمن يعرف رزان هي كل حياتها».

اعتادت رزان الانتقال من منزل إلى آخر منذ بداية الثورة السورية، في محاولة لتضليل قوى الأمن التي كانت تبحث عنها، ولطالما فاجأت المتظاهرين بوجودها بينهم في التظاهرات. كما عملت زيتونة مع معظم الناشطين أو «الثوار» وفق ما كانت تحب أن تسمّيهم. «رزان ملهمتي الأولى في هذه الثورة، كل ما شعرت بالضعف أقول لنفسي إن رزان محاصرة وتعمل بجهد جبار»، تقول المدوّنة رزان غزاوي، وتضيف: «زيتونة ليست ثائرة فحسب، بل هي تحلم بأن تكون سورية أكثر الدول عدلاً في العالم».

أسّست رزان زيتونة مع مجموعة من الحقوقيين والناشطين لجان التنسيق المحلية في سورية، التي تحوّلت بسرعة كبيرة إلى شبكة إعلامية إغاثية في كل المحافظات والمدن والبلدات السورية، «كانت تخاف على كل من حولها، وعندما يكون القصف في أشده تقول لي: عم اسمع صوت حبات المطر، وعم إحلم إني عم أرقص تانغو بإيطاليا»، على ما قالت

لنا ياسمين البرازي منسّقة المكتب الإعلامي للجان التنسيق. «لم يتوقف عمل رزان على النشاط الحقوقي والتوثيقي وتنسيق التظاهرات والمشاركة فيها والعمل في اللجان، بل كانت تزور أيضاً مقرات الجيش السوري الحر، وتحاور عناصره وتنظّم لهم ورشات مرتبطة بحقوق الأَسرى والقانون وغيرها. أصرّت على أنّ من يحمل السلاح، عليه أن يعرف ما هي حقوقه وواجباته».

ضمّت لجان التنسيق المحلية عدداً كبيراً من الناشطين داخل سورية وخارجها، ووزّعت مهامهم بدقة. «التقيت رزان في أول تظاهرة خرجت في حرستا، المرة الثانية كانت في زملكا في عيد الميلاد، هذه المرة الأولى التي تعرفت عليها وتحدثت معها»، توضح ماجدة، الفتاة التي بدأت عملها في اللجان قبل عامين تقريباً، وتضيف: «بدأتُ العمل مع رزان الحازمة والصارمة أثناء العمل، وأكثرهم طيبة في الحياة العادية. تحب الثورة والناس، لم ترفض يوماً مساعدة من طلب مساعدتها، ودائماً تعمل فوق طاقتها».

انتقلت رزان زيتونة وفريق عملها من دمشق المحاصرة من النظام وشبّيحته إلى الغوطة المحررة، من دوما، عربين، سقبا، مسرابا، المليحة، حمورية، جوبر، حرستا، وحزة، ثم عادت إلى دوما، وأطلقت هناك ما بدأت بعمله منذ بداية الثورة: «مركز توثيق انتهاكات حقوق الانسان في سوريا».

«عندما وصلنا إلى الغوطة الشرقية بدأنا بجولة في معظم مدنها وقراها. في البداية كانت رزان مهتمّة برصد المؤسسات الثورية والكتابة عنها، ومن ثم اهتمت بالمؤسسات القضائية والشرطة والسجون، وأصدرت تقريراً عن حالة القضاء والسجون»، يقول أسامة نصار، الشاب الذي تنقّل مع رزان منذ وصولهما إلى الغوطة، وبقي هناك بجانبها، وتابع: «تعمل رزان على كل الجبهات معاً، لديها مواقف صارمة وحادة من

أشياء كثيرة، أحياناً تزعج من حولها بحدّتها، لكن لولا هذه الحدة لما كان استمر العمل».

21 آب 2013 ضرب النظام السوري منطقة الغوطة الشرقية بالأسلحة الكيماوية، ما أسفر عن مقتل أكثر من 1500 مدني. مركز توثيق الانتهاكات قام بتوثيق معظم الحالات هناك، وعاش التجربة ذاتها. قالت رزان يومها: «أحاول استرجاع تفاصيل ذلك اليوم ببطء شديد علّي أنفجر بالصراخ والنواح، كما يفترض بشخص «طبيعي» أن يفعل. يرعبني الخدر الذي أحسّه في صدري، والضباب الذي يلف الصور المتلاحقة في ذهني. ليس هكذا تكون ردة الفعل بعد نهار حافل بالتعثّر بالأجساد التي صُفّت إلى جانب بعضها البعض، في الردهات الطويلة المعتمة، ولُفّت بالأكفان البيضاء أو البطانيات القديمة، لا يظهر منها إلا وجوه مزرقّة ورغوة جمدت على زوايا الأفواه، وأحياناً خيط من الدماء يختلط بالزبد. على الجبين أو على الكفن، كُتب رقم، أو اسم، أو كلمة «مجهول»».

يروي منهل باريش (من أعضاء لجان التنسيق سابقاً) حديثاً دار بينه وبين رزان يوماً: «في أحد الأيام قالت لي: منهل بدّي أعمل معك حوار. سألتها عن السبب فأجابتني: لازم نوثّق قبل ما نستشهد»، ويكمل: «أجبتها: «قصدك نموت؟»، فضحكت، وقالت: بعيد الشر!».

لم يستطع الجيش السوري الحر والكتائب الإسلامية فك الحصار عن الغوطة الشرقية، كما لم يسمح النظام للمواد الغذائية والطبية بالمرور إلى المنطقة المحررة. رزان وفريق عملها اختبروا الحصار بكل أوجهه، وكتبت في مقالها الأخير في NOW عن الحصار: «قُدِّر لي أن أعيش تجربة الحصار مع صديقة قضَت سنوات عدّة من حياتها في المعتقل. يندر أن يمر موقف من غير أن تقارن الحصار بالسجن، تقول

إن التجربتين متشابهتان إلى حدّ بعيد في أوجه كثيرة»، سميرة الخليل هي هذه الصديقة.

سميرة الخليل، هي زوجة الكاتب ياسين الحاج صالح، اعتقلت من قبل قوات النظام في الثمانينيات بسبب انتمائها إلى حزب العمل الشيوعي، وبقيت في سجن دوما لمدة أربع سنوات، وانضمّت لاحقاً إلى صفوف المتظاهرين والناشطين منذ بداية الثورة السورية، ثم افترقت عن زوجها الذي اضطر بعد فترة إلى التخفي بسبب ملاحقة الأمن له.

«كنت أراقب طريق منزلها من نافذة مطبخي، وعندما تعجّ الساحة بين منزلي ومنزلها بالأمن أو عناصر الجيش أُسرِع للاتصال بها والاطمئنان عليها، إذ كانت سميرة تسكن وحيدةً في المنزل»، تقول لينا الوفائي صديقة سميرة منذ الثمانينيات، وزميلتها في المعتقل بدوما، ورفيقة الحماس والنضال والثورة. «بعد أكثر من عام غادرتُ سورية وهي ذهبت للداخل أكثر، لحقت ياسين إلى الغوطة وأنا رحلت إلى المنفى، اليوم أعيش عقدة ذنب الناجي، وصديقتي خطفت من جهة مجهولة».

تعرّضت رزان زيتونة وفريق عملها في الأشهر القليلة الماضية إلى تهديدات وحملات تخوين عديدة، لم يكن مصدرها النظام كما اعتادت، بل هذه المرة من طرف آخر لم يتقبّل فكرة ما تقوم به. «الأمر أصبح صعباً جداً في الغوطة الشرقية، بالنسبة لناشطة سلميّة مدنية، بسبب الواقع العسكري في المنطقة، ووجود قوى متشددة قد لا ترغب بوجودها وعملها الذي يكرّس المدني ويقدّم المعونات الإغاثية للناس من دون أية أجندات»، تعلّق الكاتبة ريما فليحان، «رغم كل شيء كانت رزان مصرّة على البقاء حتى يسقط النظام، وأنها لن تغادر مهما حصل».

عمل رزان وفريقها في الغوطة الشرقية لم يقتصر على توثيق الانتهاكات، بل قاموا أيضاً بمساعدة العديد من الناشطين بتأسيس

مؤسسة خاصة لدعم المشاريع الصغيرة والمبادرات، وأسّست مع «منظمة سوريات من أجل التنمية»، ثلاثة مراكز في الغوطة للنساء، تحمل اسم «النساء الآن»، كما عملوا على تنفيذ مشاريع ثقافية، فأنشؤوا مكتبة عامة وقاعة مطالعة في عربين وحمورية، وكانوا على وشك افتتاح المكتبة في دوما قبل اختطافهم، ومشاريع اقتصادية أخرى صغيرة لتمكين النساء.

«كانت حواراتنا عملية: ما هي نوعية الكتب المطلوبة لإنشاء مكتبات. المشاريع المختارة للنساء. وسائل اتصالهن بالعالم الخارجي. حول طبيعة العمل الممكن لهن في ظروف الحصار. تفاصيل لا تمتّ إلى عالم الكتابة، ولا إلى المصطلحات النخبوية الرطينة. نتحدث بجمل مقتصدة، كلمات بسيطة جداً، مفردات اعتيادية، وعابرة، مثل موتنا اليومي»، تقول الكاتبة سمر يزبك، «تُعلّمُك الصبر والصمت، وكيف يمكن لك أن تفكّر بسورية قادمة، يعيش فيها أطفال القاتل والقتيل، في مستقبل ممكن. وكيف يمكن أن تزيدك الكراهية تسامحاً وغفراناً. الغفران القائم على القصاص العادل بالتأكيد. إذا كان مقدّراً للثورة السورية أن ترفع أيقونتها، فصورة «رزان» ستحضر في المرتبة الأولى، وخطفها ورفاقها يمثّل الفعل الأكثر وضوحاً لسرقة جوهر الثورة، وانزياحها عن هدفها الوطني العادل، هكذا أستطيع وصف رزان زيتونة: امرأة تتمرن على العدالة، بصلابة الحديد، ورقة الفراشة، وتحمل الثقلين معاً، ثقل الهشاشة، ومكابدة صيرورة المعنى».

عودة سلطة الخوف منذ إعلان «مباراة الموت»

2014/1/4

«ما بعرف شو أعمل، عم نعيش خوف مختلف، بالمدينة المحتلّة، ما بعرف إذا اسمو خوف، وما بعرف إذا بنزل إنتخب، يعني صعبة والله، صعبة أبصم للي عذّبني 6 شهور بفرع المخابرات، أو لازم خوض «مباراة الموت»، قال الصديق.

أ ف ب، دمشق ـ أدلى الناخبون في المناطق التي يسيطر عليها النظام السوري، الثلاثاء، بأصواتهم في انتخابات رئاسية محسومة سلفاً لصالح الرئيس بشار الأسد، فيما العمليات العسكرية على وتيرتها التصعيدية.

سانا، النظام ـ مشهد الحشود المتدفقة إلى مراكز الاقتراع على امتداد الجغرافيا السورية منذ ساعات الصباح الباكر أربك حسابات أعداء الشعب السوري، وخلط أوراقهم وحطّم أحلامهم، ورسم ملامح الطريق إلى سورية المستقبل التي صوّت من أجلها السوريون كي تكون عامرة بالأمن والأمان والاستقرار وخالية من الإرهاب والإرهابيين والمرتزقة وفكرهم الدخيل الغريب.

عرس الدم

مصياف، حماة ـ يخرج من منزله، مرتدياً قبعة، نظارات شمسية، يد في جيبه والأخرى يشقلب سيجارة نصف محترقة بين أصابعه، يضعها في

فمه، يشعلها، يلقي بها، يهشمها بقدمه... صورٌ متراصّة، عشوائية، معلّقة على طول الشارع. يقف جانباً في انتظار سيارة أجرة لتقله. يمر طفل صغير مرتدياً الوجه ذاته الموجود في الصور، يشدّ على فكيه بقوة، يلمح أستاذه من بعيد مرتدياً الكنزة ذاتها، الصورة نفسها، والذي تجاهله وابتعد مسرعاً. يوقف سيارة الأجرة، أدخل نصف جسده، نظر إلى السائق وقفز إلى الخارج... السائق يرتدي وجه قاتل أبيه.

«اثنان ممن يعرفونني أشاحوا بوجوههم خجلاً، وقلة أخرى كانوا يرمون دعابة علي، يقاطعها صوت الرصاص، أما صديقي، فقد أزاح يده بهدوء من جانبه ووضعها في جيبه بعد أن لمحت إصبعه، أومأ برأسه من بعيد ومضى..»، قال يوسف.

دمشق ـ «رحت على الشغل، كان في مركز للانتخابات ومشرفين، وطبعاً في مخبرين»، تقول الفتاة العشرينية، وتكمل: «بلّشوا يدوروا على المكاتب ويطلبوا منا ننزل على الطابق اللي تحت لننتخب، وقفت ومشيت، بعدين فتت على الحمام وسكّرت الباب، بقيت شوي، خلص الدوام وطلعت، لحدّ هلق ما حدا انتبه». وتضيف: «مابعرف إذا هاد اللي عم أعملوا غباء أو شو، بس موزابطة إني إنتخب هاد المجرم شو ما كان التمن».

مباراة الموت

يدخل إلى الملعب، يمسح حذاءه المهترئ بجرابه الطويل المتسخ، ينظر إلى الجمهور، الجمهور نصفه مدني، نصفه عسكري. يركض إلى منتصف الملعب، وكذلك يفعل باقي الفريق، اللاعب الأخير يتأخر قليلاً، يمسح حذاءه بجرابه، ينفض الغبار الأبيض عن كفيه ووجهه وملابسه، يشد كتفيه ويلتحق بباقي الفريق.

«أُلقي القبض عليهم في الثامن عشر من آب/ أغسطس من العام

نفسه، وبحسب والدي فإن سيارة تابعة للجيش الألماني اقتربت من المصنع واقتادت أعضاء الفريق إلى مقر الشرطة السرية الألمانية (الجيستابو) حيث أمضى والدي ثلاثة وعشرين يوماً هناك». أحد أبناء لاعبي الفريق الأوكراني.

1942 كانت أوكرانيا محتلة من الدولة الألمانية النازية آنذاك، المباريات كانت إحدى المواجهات بين البلدين، المنتخب الأوكراني الذي يعمل أعضاؤه خبازين وعمالاً رفضوا الخضوع لطلب ضابط الجيش النازي الذي هددهم بعد انتهاء الشوط الأول لصالح الأوكرانيين: «لا تتوقعوا أن تفوزوا في اللقاء وعليكم التفكير في العواقب إن انتصرتم»، وعلى الرغم من ذلك لعب المنتخب الأوكراني حتى النهاية، وفاز على الألمان، لكنهم لم يكونوا يعلمون بحسب ما نُشر من وثائق عن المباراة أن هذه المباراة ستسمى لاحقاً بـ «مباراة الموت».

الرضوخ أو الموت أو الاعتقال

دمشق ـ يكشف عن كفّه، 20 حبة دواء. صوت قطار سريع يقتحم رأسه كل 5 ثوانٍ. يغرس رأسه بين ركبتيه، يرفعه مجدداً. كرر الحركة ذاتها 30 مرة خلال الساعة الأخيرة. يقف، يخفي الدواء في جيبه، يشد كتفيه، ويركض حتى يرتطم بالحائط، يقع. يتراجع خطوة خطوتين ثلاثاً، يشد كتفيه، يوجّه رأسه على شكل «حربة» باتجاه الحائط، ويركض، يرتطم، يقع. يفتح عينيه، ما زال يبصر، يداعب الدواء في جيبه، ويعدُّ «واحد اثنين ثلاثة..»، يفتح والده الباب: «رح تقوم ننتخب بشار الأسد، ما عنا حل تاني، بدك يعتقلوك كمان مرة ويبهدلونا كلنا، رح إستناك برّا». يُخرج كل ما في جيبه ويقحمهم في فمه مع أصابعه الخمس.

يحمل قنينة الماء، فارغة تماماً.. يبصق الدواء، يرتدي ملابسه ويخرج.

لبنان ـ آلاف المدنيين يسيرون باتجاه السفارة السورية في بيروت. هذا هو المشهد من بعيد. بعض من النازحين الهاربين والعمال المتواجدين في لبنان قبل 2011 يحملون صوراً لبشار الأسد، وأعلام النظام. المشهد هو كذلك تماماً من بعيد.. بعيد جداً.

دمشق ـ مراكز الانتخابات وُزِّعت في الدوائر الحكومية والمؤسسات، «وصلت على المكتب، فتت لقيت في مركز للانتخابات، صندوق ومشرفين»، تقول إحدى المواطنات السوريات، وتكمل: «قائمة الأسماء جاهزة، البطاقة اللي المفروض نشوفها لنختار مسكرة ومحطوطة بظرف، قالولي غطّسي إصبعك بالحبر وفوتي على المكتب، من مبارح وأنا عم حاول إمسح الحبر عن أصبعي بكل الطرق بس لسه ما راح». وتضيف: «حتى في زميل فلسطيني معي بالشغل، خلّوه يحط أصبعو بالحبر، مع إنو ما بحق للفلسطيني ينتخب».

مباراة الرضوخ

عام 1978 أمر الحاكم الأعلى لحكومة ثورة البيرو خوان فيلاسكو ألفارادو أعضاء منتخب البيرو بخسارة المباراة التي سيلعبونها مع الأرجنتين بـ 4 نقاط كي تتأهل للدوري الثاني، وذلك بعد رشوة قدّمتها الأرجنتين له. رفض الفريق ذلك وقرروا الانسحاب من المباراة، فما كان من الحاكم إلا أن هددهم بمعاقبتهم بتهمة الخيانة وما سيترتب عليها. دخل الفريق إلى المباراة، وفازت الأرجنتين بـ 6-0.

عن الخوف

بالعودة إلى بعض الشهادات التي حصلت عليها زميلتَي في العمل نادين العلي في الجنوب اللبناني ومايا جبيلي أثناء تغطيتهما للانتخابات بالقرب من السفارة السورية في بيروت وما تم نشره في NOW، وبعض ما استطعت الحصول عليه.

قبل أسبوعين تقريباً من بدء الانتخابات التي يقيمها النظام السوري، بدأت لجان تابعة للنظام وآخرون من حزب الله والحزب السوري القومي في مناطق محددة في لبنان، منها حاروف وبنت جبيل في الجنوب، بتهديد وترهيب السوريين هناك من نازحين وعمال بترحيلهم وإيقافهم عن العمل وسجنهم بحال لم يسلّموا هوياتهم ليتمّ تسجيلها في الانتخابات، كما هددوهم بحال عدم نزولهم إلى السفارة السورية في لبنان وانتخاب بشار الأسد.

كما قال نازحون سوريون في عرسال التقاهم NOW، أكثرهم من قرى منطقة القلمون السورية، إنّ الإغراءات التي قُدّمت لهم كثيرة، منها تسوية أوضاعهم وإعطاؤهم هويات وجوازات سفر جديدة، وتقديم مساعدات مادية وعينية، وتسهيل عودتهم إلى بيوتهم في سورية، بحسب «زياد» النازح من بلدة يبرود. في حين قال «أبو محمد» من قارة إن إحدى الجهات وعدتهم بأن المكافآت والمساعدات «ستكون أكبر في حال قبلوا بالعودة والإدلاء بأصواتهم داخل الأراضي السورية».

بحسب البسيكولوجي الفرنسي بيير مانوني «إن الخوف يحمي أو يقي المرء من حديث يدفعه نحو ملجأ من الخوف نفسه»، أي ممارسة سلطة الخوف من أجل مقاومة الخوف من السلطة. في حالة الانتخابات في سورية، الاقتراع في سورية هو حرية الخوف في وجه الخوف من الأسد.

في البحث عن مباراة الموت والصديق في بداية النص

خمسة وأربعون ألف متفرج حضروا مباراة جمعت سنة ألف وتسعمئة واثنين وأربعين، بين فريق محلي هاوٍ من مدينة كييف وفريق نازي تابع للجيش الألماني غداة احتلال ألمانيا لأوكرانيا. مباراة قُتل على إثرها معظم أعضاء النادي الأوكراني.

تقول الرواية: «تلقى الفتية استدعاءات من الشرطة السرية الألمانية الواحد تلو الآخر حتى اكتمل عددهم، وأُرسلوا إلى أحد المعتقلات الألمانية. تم تعذيبهم. توفي بعضهم تحت التعذيب وأُعدم آخرون رمياً بالرصاص، ومنهم من استطاع الهرب بعد أكثر من 6 أشهر».

تفكيك ملامح وجه حافظ الأسد

2014/1/11

الرجل المسنّ = الديكتاتور

رجل مسنّ، رأس كبير، وجه طويل، جبين عريض، شعر خفيف مشذّب وممشط بفرْقٍ جانبي، أذنان كبيرتان، شوارب بيضاء، أنف متوسط الحجم، عينان غائرتان إلى حد ما، وابتسامة.. نعم ابتسامة. لا يميز هذا الوجه أي ملامح حادة، أو عظام بارزة. رجل كبير في السن، إنه رجل كبير في السن فقط، لا شيء لافتاً في ملامحه العادية، (الصورة المجردة).

«ما في صور إلو وهو مبتسم، ما بعرف.. ما بتذكر إنه مبتسم، كانوا يعلمونا بالمدرسة إنو حافظ الأسد قوي وخيالي. لهيك ما بيبتسم»، يعلّق عامر مطر (27 عاماً)، ويكمل: «ما بعرف وِجُّو إلا صورة مسطحة».

«بتذكر فوراً صورتو اللي كنت شوفا على السرفيس، راس كبير وراه في ضو ولابس بيريه»، يقول نوار قاسم (26 عاماً)، ويضيف: «عيونو زغار وجمجمة كبيرة بالنسبة لمساحة الوجّ، ممكن يكون عم يبتسم ابتسامة خفيفة».

تركيب وجه الديكتاتور

لنتخيّل وجه حافظ الأسد دون العودة إلى أرشيف الصور، كما طلبت من مجموعة من الأشخاص في عمر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات. جمعت

ما قالوه في محاولة لرسم وجه الأسد وملامحه، فكانت الصورة المركبة من ذاكرتهم الجماعية هي التالي:

رجل مسن، رأس كبير، جبين عريض، شعر خفيف، ملامح باردة، صارمة، ابتسامة ماكرة، ديكتاتور، وحش، مجرم.

«بتذكّر الوج كان كبير كتير، أكيد أكبر من كل الوجوه اللي بعرفها، وحتى وج أبي. وكان هذا كتير طبيعي لأنه الرئيس»، تقول مها (30 عاماً).

«بصراحة لا أستطيع حقاً أن أتخيّل شكلاً لحافظ الأسد، هو اللون الأسود الكالح المتشكّل عند إغماضة العين»، يوضح دارا عبد الله (24 عاماً) «الصور الخاصة بحياة حافظ الأسد الشخصية هي قليلة، معظمها صور صارمة ورسميّة ومدرسيّة، تلائِم اتساع المباني الحكومية المقفرة، وتشابه الأبنية السكنية، لأنّ الحياة الخاصة فيها من الحس الإنساني اليومي الذي يبعثرُ هالةَ أية سلطة، لذلك لا صور لحياة حافظ الأسد اليومية. حتى تبقى هكذا، سلطة غامضة فوقية».

عُلِّقت صور حافظ الأسد في كل مكان، على دفاتر المدرسة وجدرانها، كذلك في الجامعات، الدوائر الحكومية، جدران الشركات الخاصة أيضاً. إذاً وجهه بقي أمام العين بشكل مستمر، يومي، ولازم الطفولة والمراهقة والشباب.

«كنت أستغرب دايماً وقت كنت صغيرة من تمثال حافظ اللي موجود عطريق طرطوس من حماة ـ مدخل القدموس، ليش تمثال رئيس سورية إيدو أكبر من راسو؟ وكأنو جاهز دائماً ليسفق يلي تحتو كفّ»، تقول سارة (25 عاماً).

فرضية

احتفاظ الذاكرة بهذه الصورة أخذ شكلاً مختلفاً عن شكلها المجرد الفيزيولوجي، إسقاط شخصية الشخص، أفعالها، ما تسمع عنها، نظرتك

إليها، لإعادة خلق الوجه والملامح وبناء غيرها، التي من الممكن أن تكون مختلفة تماماً، أو يصبح وصف الملامح بشكل دقيق عصياً بحالة حافظ الأسد عند الكثيرين، إذ تتم الإجابة عن السؤال: أوصف ملامح وجه حافظ الأسد؟ الجواب كان عند أغلب من سألتهم هو: «خسيس، وحش، حامل سكين، غضبان، (وجُو عم ينقّط سمّ)».

«أول ما بلشت الثورة رسمتو لحافظ الأسد، عملت إسقاط بينو وبين فيتو كورليوني من فيلم العرّاب، في تشابه بالنشأة والمسار، بين الشخصيتين، يعني الـ2 كانوا أشخاص نكرة، والـ2 قدروا يعملوا إمبراطورية مافيوية بتحكمها العائلة.. والـ2 ورّثوا إدارة العصابة للابن»، يقول أحد رسامي كفرنبل، أحمد جلال الملقب بـ «مفك الفاحص»: «إذا بدي إرجع أرسمو هلق، يعني أكيد ما فيه صفات بشرية.. مزيج بين وحش مفترس وشيطان».

الذاكرة الرّضية

«في ما يتعلق بحافظ الأسد، من الصعب تمييز ذلك الوجه ذي الملامح الإنسانية من الناحية الوصفية البحتة، إذ غالباً ما يتم استحضار جملة من المحتويات الذاكرية والأفكار «النمطية» شبه الجاهزة، المدعومة بمرويات لها نصيب شخصي وآخر جمعي»، يوضح الاختصاصي والباحث في علم النفس جمال صبح، ويكمل: «عندما نُجابَه بالتفكير بصورة أي دكتاتور، وحافظ الأسد منهم، يتم في الذات، وعلى درجة كبيرة من الوثوقية، تفعيل شيء يمكن وصفه بـ «الذاكرة الرّضية» (traumatic memory)، حيث الفجوات المتعددة، العواطف السلبية المؤجّجة، لا مكان للتفاصيل مقابل الشمول الأعم للوحة الذاكرية المستحضرة».

المخزون البصري والعقلي والحسي ـ مجزرة حماة

يسمع صوت أقدام كثيرة تهرول باتجاههم. لم يكن يفهم ماذا يحدث،

تفجيرات، رصاص كثيف، النساء يقرأن القرآن، الأطفال يبكون، ضجة وحركة مستمرة، ورعب، «وجدنا ملجأ كبيراً يتسع للجميع وبقينا داخله لمدة يومين قبل وصول الجيش العربي السوري، ليتحوّل الملجأ إلى معتقل، ثلاثة أيام ثابتة في ذاكرتي، حتى الرائحة أتذكرها جيداً، أستطيع أن أستعيد الرائحة حتى الآن»، الفنان خالد الخاني.

«أظن أن إعادة تذكر ملامح الوجه، له شقان بحسب رأيي، الأول هو التحضير المسبق عن هؤلاء وعن إجرامهم (جنود الجيش السوري)، والثاني عدم التكافؤ بيننا وبينهم»، يوضح الخاني «كنت شوف وجوهن وجوه وحوش. ما كنت إقدر شوفهن بشر بملامح عادية أو بشبهونا».

الطفل ذو الـ 7 سنوات كان متعلقاً بعمّته، التي كانت تسكن مع أخيها وزوجته في المنزل ذاته منذ زمن، لذلك كان الخاني يناديها «أمي». طلب والد خالد الخاني من زوجته أن تأخذ الأولاد وتزحف معهم إلى حي الأميرية، لم يقبل الطفل أن يترك عمته العجوز، صفعه والده وأمره صارماً أن يلتحق بوالدته.

«برأيي السلوك يطغى على الشكل البصري بشكل عام، لا أستطيع تذكر وجه عمتي آنذاك عندما طُلب مني الانضمام إلى أمي، إذا حاولت تذكرها الآن في تلك اللحظة، بتخيّلها تمثال جامد، ماعاد في دم فيو، وقتا ماعملت أيا ردة فعل، كانت تماماً هيك وهيك بتذكر وجهها»، قال خالد.

عملية التحطيم

في أرشيف التلفزيون السوري، صور كثيرة عن الرجل المسنّ، الذي يحيط نفسه بأطفال صغار في إحدى المدارس، صورة الأب التي حاول فرضها. والتي تعود إليها أرشيفياً في صوره، «الرجل المسنّ، المبتسم».

يعلّق الاختصاصي في علم النفس جمال صبح: «إننا نكاد نجزم بأن

طبيعة الأحداث ما بعد الثورة قد قامت على توحيد الصور الذهنية عن الدكتاتور البائد/الحاضر في ثنايا الذاكرات الفردية الخاصّة لتأخذ صيغة جمعية أعم».

الثورة السورية، منذ بدايتها، كسرت الخوف من الديكتاتور الأب، امتداداً للابن، فككت الصورة من الذاكرة البصرية بعد أن قامت باقتلاع الهالة المسببة للضبابية على الملامح، وأعادت رسم الوجه الحقيقي للصورة البصرية الواقعية، وجه الديكتاتور.

الممانعة تطعم أهالي اليرموك شوك الصبار

2014/1/15

همس في أذني: «أنتِ يا بنت القدس!»، أمسك برأسي وضغط عليه بقوة. شدّ القيد على معصميّ ثم أرجع رأسي إلى الوراء ضاغطاً على عينيّ بالعصابة السوداء وقد ألصق قدمه على قدمي.

بدأ صوته يعلو تدريجياً: «كيف بتطلعي مظاهرة ضد النظام ونحن خسرنا كتير مشان بلدكن، أحسن شي نكبكُن على الحدود». هذه هي المرة الأولى التي أصطدم فيها بشكل مباشر مع هويتي. ما قاله المحقق في فرع المخابرات الجوية كان غريباً بالنسبة لي، محاولته فصلي عن طفولتي، مراهقتي وشبابي وذاكرتي، سلخي عن وطن ما شعرت يوماً أني غريبة فيه، جعلني أطرح على نفسي للمرة الأولى سؤالاً.. هل أنا فلسطينية أم سورية؟؟ وهل يجب أن يكون هناك فرق؟!

اليوم يعاني سكان مخيّم اليرموك، فلسطينيين كانوا أم سوريين، المعاناة نفسها داخل الحصار الذي فرضه عليهم النظام السوري، النظام ذاته الذي يدّعي في خطاباته المستمرة «وقوفه إلى جانب القضية الفلسطينية ودفاعه عنها».

أُنشئ مخيّم اليرموك عام 1957، على مساحة تقدَّر بـ 2.11 كم مربع فقط، لتوفير الإقامة والمسكن للاجئين الفلسطينيين في سورية، وهو

من حيث تصنيف وكالة الأونروا لا يعتبر مخيّماً رسمياً. وهو أكبر تجمع للاجئين الفلسطينيين في سورية.

12-2012 بدأ الحصار على المخيّم بشكل جزئي بعد القصف العنيف الذي تعرض له، والذي أسفر عن مقتل العديد من المدنيين في الوقت الذي توافد إليه آلالاف النازحين من المناطق المجاورة هرباً من القصف العنيف عليها. مرّ الحصار بعدة مراحل، آخرها كان في 5 رمضان الماضي إذ تم إحكام إغلاق جميع مداخل ومخارج المنطقة الجنوبية من دمشق بشكل كامل.

«في بداية الحصار كان السكان قادرين على تأمين المواد الإغاثية، لكن المواد الغذائية والطبية بدأت تنفد مع ازدياد حدة الحصار ومنع النظام دخول أي مواد إلى المخيّم. ارتفعت حالات الوفاة نتيجة سوء التغذية..»، يقول عبد الله أحد شباب المخيّم، ويتابع: «أكثر من 1000 حالة بحاجة إلى عمليات سريعة طارئة، ومشفى فلسطين التابع للهلال الأحمر يعمل بالحد الأدنى، ذلك أن 90% من المواد الطبية غير متوفرة، كما أنه المشفى الوحيد الموجود الآن في المخيّم والذي لم يسلم من قصف النظام له».

وأضاف عبد الله: «لم يعد أمام سكان المخيّم سوى تدبير أمر معيشتهم مما تجود به قارعة الطريق.. لكن ذلك ليس بالأمر السهل، ولا الآمن. قبل يومين تسممت عائلة كاملة بسبب أكلها القطط. عائلة أخرى حاول الأب حرق أطفاله لأنه غير قادر على تأمين الطعام لهم، فمثلاً يترواح سعر كيلو الأرز بين 10 آلاف و12 ألف ليرة سورية، والأهالي لا يملكون المال لشرائه بهذا السعر، أنا من الأشخاص القلائل الذين يستطيعون أكل وجبة مكوّنة من «المخلّل» والأعشاب (لوح الصبارة، خبيزة)، «إذاً أنا غني».

يعمل عبد الله (24 عاماً) مع مجموعة من شباب مخيّم اليرموك في نقل الأخبار وتوثيق الحالات والإغاثة، ويعيش عبد الله في المخيّم مع والدته

الناشطة هناك أيضاً، «المخيّم بالنسبة إلي هو فلسطين، والثورة السورية نحن جزء منها ضد الذي هو حجر عثرة في وجه التحرير». ويكمل: «لا أفكّر بأني فلسطيني أو سوري، أنا منتمٍ لهذا البلد إنسانياً قبل كل شيء، ولن أخرج من مخيّم اليرموك إلا بحال أصبح وجودي مثل عدمه، وفي حال خرجت منه لن أعود.. لا أستطيع أن أتخيّل شوارع المخيّم من دون وجود حسان وأحمد كوسى وأحمد السهلي ومنير الخطيب وبسام حميدي وأياس نعيمي وجعفر..».

محاولات النظام إخضاع المخيّم لم تبدأ بالحصار فقط. إن استخفاف النظام بالفلسطينيين وحيواتهم خلال الثورة بدأ حين استخدمهم في بداية الثورة لإيصال رسالة إلى إسرائيل، إذ غرر النظام السوري والجبهة الشعبية القيادة العامة ببعض الشباب الفلسطينيين المندفعين وراء حلم تحرير الأرض لاقتحام الحدود السورية الإسرائيلية عبر الجولان، وفكَّ النظام حينئذ حواجزه الأمنية على الطرقات المؤدية إلى الجولان. خطة النظام هذه أسفرت عن مقتل 30 فلسطينياً على الحدود بالرصاص الإسرائيلي، و20 آخرين أثناء تشييع قتلى الحدود في المخيّم برصاص الجبهة التي أطلقت النار عليهم، في ما سمّي بـ «المجزرة الخالصة».

«يبدو أن النظام طلب من أحمد جبريل أن يحاول فرض سيطرته على اليرموك بأي طريقة ممكنة، وهذا ما حاول جبريل القيام به مستعيناً بـ «زعرانه» الذين قاموا بمضايقة الجيش الحر وتعطيل بعض عملياته، كما قاموا باستعباد الناس وترهيبهم بالسلاح، وساعدوا النظام على اعتقال عدد كبير من شباب المخيّم».

يقول محمد الشاب الذي نزح قبل إعلان الحصار الكامل على اليرموك (رافضاً أن يذكر اسمه الحقيقي خشيةً على جزء من عائلته بقي هناك): «ازداد الغليان في المخيّم من قبل السكان والجيش السوري الحر الذي هو

من شباب وأهالي المخيّم، وعادت التظاهرات من جديد وبقوة أكبر إلى أن قُصفنا بالميغ».

استخدم النظام في مرحلة قصف اليرموك الأولى طيران الميغ، الذي كان نقطة تحوّل كامل لوضع المخيّم، إذ قصف حينذاك جامع عبد القادر الحسيني والمنازل التي حوله، ما أسفر عن مقتل 170 مدنياً، ونزوح عدد كبير من سكان المخيّم إلى لبنان.

«شارك اليرموك في الثورة السورية منذ الأشهر الأولى، إذ رفع شبابه شعارات الثورة السورية ذاتها تحت عنوان: «فلسطيني سوري واحد». اكتشفتُ أنني لست فلسطينياً فقط، بل فلسطيني سوري، أتقاسم مع السوريين الهواء والماء والقذائف والصواريخ، وداخل حدود المخيّم اكتشفت شكل وفداحة ما حلَّ باللاجئين الفلسطينيين الأوائل من خلال معايشتي لنزوح السوريين من مختلف الأنحاء والأرجاء ليتخذوا اليرموك ملجأً لهم من قمع العسكر»، يعلّق ثائر السهلي.

للشام بُعدٌ في هذا المخيّم، وهو ارتمى في حضنها. مخيّم اليرموك كان عالماً من «الخصوصية الوطنية» المبنية على تضاد مع «المنفى» وخدشاً بارزاً في الهوية، «لا أعرف إن كنت سأشعر بفلسطينيتي من دونه».

تصاعدت النداءات الإنسانية لإنقاذ سكان المخيّم المحاصرين منذ أكثر من 8 أشهر، لكن دون جدوى، إذ حاولت عدة قوافل إغاثية الدخول إلى اليرموك لكنها فشلت. آخرها قافلة يوم الاثنين الماضي تعرضت لإطلاق نار كثيف من قبل قوات النظام وأعادتها من حيث جاءت.

«كان هناك أكثر من محاولة هذا الشهر لإدخال المساعدات من مواد غذائية وطبية إلى اليرموك من قبل أطراف عدة، لكن النظام السوري تصدى لها ومنعها من الدخول حتى تلك التي كانت من منظمات دولية

كالأونروا والصليب الأحمر»، يشير عبد الله «لربما تُحَل هذه الأزمة وتدخل المساعدات بعد جنيف 2». وأضاف: «المدنيون والمحاصرون ضحايا قبضة نظام لا يرحم.. لكنّ المخيّم باقٍ.. حتى وإن صار جزءاً من مخيّم آخر كبير يدعى سورية».

نسقط كي نستيقظ

2014/1/21

النوم ـ الحلم

عاشت الشعوب العربية تحت أنظمة ديكتاتورية لعقود عدة، تعرض كل من حاول مواجهتها للاعتقال والقتل. على الرغم من أن الشعوب في تلك المرحلة عانت من الكبت والقمع، إلا أنها كانت تحلم بالتحرر.

الاستيقاظ ـ الواقع

انتفضت الشعوب العربية معلنة في «الربيع العربي» بدء محاولة إسقاط الأنظمة الديكتاتورية. تظاهرات ملأت شوارع البلاد، رفعت شعار إسقاط النظام، وعلى الرغم من أن رد هذه الأنظمة كان الاعتقال والقتل وتدمير المدن، إلا أن الشعوب الثائرة لم تتنازل عن مطلبها ذاك، إذاً تحقق حلم الثورة. (الواقع).

هبة تقفز إلى الواقع

في أحد منازل القاهرة، داخل الغرفة على الكرسي الخشبي، جلست هبة، صامتة تماماً، تحدّق في الحائط أمامها، نظرت إلى ساعتها، ثم إلى هاتفها. «5 دقائق فقط، الوقت يمر ببطء شديد»، تمتمت. ضوضاء المدينة في الخارج لم تطغَ على الصراع المحتدم في رأسها، إلى أن قطع

رنين الهاتف كل ذلك، وحلَّ السكون. قفزت هبة إلى الباب وخرجت من منزلها مسرعة.

«كنت متحمّسة بس خايفة جداً، قابلت بنتين أصحابي وطلعنا مع بعض، وابتدينا نمشي في المسيرة وكنت مش مصدقة نفسي، بالذات لما المظاهرة كانت بتهتف للناس في البلكونات: «انزل.. انزل»، والناس كانت بتنزل من بيوتها. حسيت إن دي ثورة»، تقول هبة غنام (28 عاماً) درست العلوم السياسية في جامعة القاهرة.

ماهر قفز إلى الواقع أيضاً

في غرفة صغيرة، بالعاصمة دمشق، يمشي ماهر ذهاباً وإياباً. يفتح الباب، يدخل طارق مندفعاً، ويمشي ذهاباً وإياباً كذلك. لا ينظر أحدهما إلى الآخر. بعد مرور نصف ساعة، يقف ماهر في مواجهة طارق ويقول له: «معقول يصير عنا نفس الشي، متخيّل لو صار عنا ثورة؟».

«وقت صارت الدعوة لأول مظاهرة بالشام ما كنت مصدّق، نزلت بدون ما فكّر، وبدون ما حسّ بأي شي غير إنو بدي صرّخ. اعتقلوني أنا وطارق بمظاهرة الجامع الأموي الأولى، بقينا شي أسبوعين وتعرضنا للتعذيب». يقول ماهر (30 عاماً)، خريج كلية الهندسة. «وقت كنّا بالسجن، كنّا عما نقول: شوي وبفوتوا الثوار وبحررونا، ما كان فيني ما فكّر هيك، الناس نزلت على الشوارع عم تنادي حرية».

ويضيف ماهر: «مين كان متوقع إنو هالحلم يصير حقيقة، وإنو نوقف بوجّه النظام، نحن حاملين جسمنا معنا وهني حاملين رشاشات، ما كان مهم، المهم إنو نصرخ بصوت عالي: الشعب يريد إسقاط النظام».

محرّك البحث

قد يصح القول إن هبة وماهر استيقظا من النوم (مرحلة الكبت)،

وقفزا إلى الواقع، في حال استندنا إلى أحد تفسيرات «فرويد» في ما يتعلق بالأحلام. «ما يحرك الأحلام هو رغباتنا اللاعقلية. خلال النوم تدب الحياة بعدد من الحوافز التي لا نريد الاعتراف لها بحق الوجود عندما نكون مستيقظين».

في مرحلة الكبت والقمع، حلم الثورة كان غير عقلاني ولا نريد الاعتراف له بحق الوجود، وذلك لأنه في ذلك الوقت مجرد التفكير فيه كان له عواقبه الوخيمة.

الثورة واقع

مصر

2011 تظاهرات عدة خرجت في مصر طالبت بإسقاط النظام، واعتصامات كثيرة استمرت أياماً، تعرض خلالها المتظاهرون للضرب والاعتقال.

في السادسة من مساء الجمعة 11 شباط 2011 أعلن نائب الرئيس عمر سليمان في بيان قصير عن تخلي حسني مبارك عن منصبه، وأنه كلّف المجلس الأعلى للقوات المسلحة إدارة شؤون البلاد.

سورية

2011-2012 عمّت التظاهرات السلمية معظم المدن والأرياف في سورية. وعلى الرغم من حملات الاعتقالات الوحشية والقتل والقصف إلا أن الثوار لم يتوقفوا عن النضال لتحقيق مطلبهم في «إسقاط النظام».

مرحلة النوم ـ الكابوس

النظام الديكتاتوري لم يسقط في سورية بعد ثلاث سنوات. تبدّل

النظام الديكتاتوري في مصر بالعسكر. التظاهرات لم تعد موجودة كما في (مرحلة الواقع)، السلاح، القاعدة، داعش، جبهة النصرة، الإخوان المسلمون، العسكر، الحرب.

(هذا لا يعمّم على كل الثورات العربية، لكني أعتقد أنه من الممكن إسقاطه على كل من سورية ومصر، على سبيل المثال، على الرغم من الاختلاف بينهما في التاريخ والأحداث والنتائج).

الحلم

رفعت الثورة في مصر وكذلك في سورية وليبيا واليمن والبحرين وتونس شعارات كثيرة منها «حلم التغيير»، «حلم الثورة»، «لاستكمال حلم الثورة». هل من الممكن أن نقول إن «إرفاق كلمة حلم بالواقع الثوري تعني أن ما رواه كل من ماهر وهبة عن الثورة في مصر وسورية، مجرد حلم وليس واقعاً!!».

هل كان تصدير فكرة الثورة على أنها حلم، هو السبب الذي جعل الثوار يتعاملون مع الواقع اليوم على أنه كابوس، أي أن تتحوّل ردات فعلهم على الأحداث تماماً كما لو كانوا نياماً؟

الكابوس

عندما ننام، ويبدأ الكابوس، ردات الفعل تجاه الأحداث فيه تكون الهرب، عدم القدرة على الكلام، عدم القدرة على الحركة، أو الركض المستمر، الغرق، السقوط والشلل... إلخ.

هبة

بعد سقوط مبارك، استطاع الإخوان المسلمون الحصول على أصوات انتخابية تؤهلهم للفوز برئاسة مصر، لكنهم فشلوا في الاستمرار، وجاء

العسكر الذي فرض سيطرته، وعيّن نفسه حاكماً عليها بقوة السلاح والقمع والترهيب.

«النهاردة الأغلبية أعتقد ندمانه على أن الثورة انخطفت من الإسلاميين والعسكر، أنا شخصياً اعتزلت السياسة. فوز السيسي بالرئاسة والنزعة «القومية» الفاشية اللي في البلد بتفرض علينا ولو فترة هدوء مؤقتة»، تقول هبة.

ماهر

انتقلت الثورة في سورية في أواخر العام الثاني 2012 وبداية العام الثالث 2013 إلى منحى آخر، النظام السوري زاد من وحشيته، بل أكثر من ذلك اعتمد استراتيجية التدمير الممنهج للمدن والمناطق الثائرة على رؤوس المدنيين فيها. كما خُلقت داعش والنصرة، اللتان بسطتا سيطرتهما على بعض المناطق المحررة، واتبعتا منهج النظام ذاته في قمع المتظاهرين والنشاطات المدنية. وانتُخب بشار الأسد نفسه مجدداً. (هذا بالتأكيد جزء من الحدث).

«وقت طلعت ما كان في مجال الواحد يروح للمحرَّر بسبب داعش، وبالشام صارت الحركة واقفة، وأي نشاط أو مظاهرة صار شبه مستحيل، الثوار كتير منهن اضطروا يطلعوا برّات البلد بعد ما طلعوا من المعتقل، وفي منهن كانوا مطلوبين، ما كان قدّامون حل غير إنو يسافروا، وكتير منهن اعتقلوا أو استشهدوا». يقول ماهر. ويكمل: «قلت بركي بَرّا بقدر أعمل شي، أو ساعد بأي شكل، على الأقل فيني أتحرك، ما طلعت لأني خايف بس لأنو ما عاد قدرت أعمل شي، حسيت وجودي متل عدم وجودي».

نسقط كي نستيقظ

السماء لونها أسود، الأرض لونها أسود، هناك من يحاول مهاجمته

لكنه لا يستطيع أن يراه بوضوح يركض مبتعداً باتجاه منزله، يحاول أن يصرخ منادياً والده لينقذه، يفتح فمه، يسقط لسانه أرضاً، يشعر برعب شديد وألم في وجهه، تتساقط أسنانه كلها معاً، كل ما حوله يهاجمه، يركض ويركض ويركض يصل إلى جسر عالٍ، يقفز.

من الممكن أن نقول: معظمنا نقع أو نلقي بأنفسنا في مكان ما داخل الكابوس، وهذا يحدث بالفعل، نشعر تماماً بحالة السقوط، عندما نستيقظ نشعر بأن أجسادنا عادت إلى الحياة، القلب يدق بسرعة، وهناك من يقع فعلاً من فراشه عندما يستيقظ، أو ينتفض جسده بالكامل.

إننا في كل الأحوال نستيقظ، ونذهب إلى الواقع.

حَكَم المونديال: وقت مستقطع... تفجير الطيّونة

2014/1/25

التفجير والشاشة والمشاهد

الساعة 11:35 ليلاً، الطيّونة ـ بيروت

شخص ما، لا نعرف إذا كان ذكراً أو أنثى يقود أو تقود سيارة مرسيدس بيضاء اللون أو حمراء اللون، ي/تجلس خلف مقود السيارة. في الخارج ضجيج وصرخات متقطعة.

شاشة التلفزيون والمشاهدون

ملعب أخضر، جمهور غفير، لاعبون وحكام، الكرة في الملعب يتم تقاذفها بسرعة، القدم تضرب، القدم ترفع، والقدم تسدد الهدف، البرازيل تدخل هدفاً، المشاهدون في هذه اللحظة قفزوا، صرخوا، وصفقوا، تزامن هذا مع المفرقعات المرافقة لـ «غول» (هؤلاء هم مشجعو البرازيل)، بينما مشجعو الفريق الثاني صمتوا، تذمروا، غضبوا، وتململوا.

الساعة 11:40 ليلاً، الطيّونة

المخلوق ذاته خلف مقود السيارة البيضاء أو الحمراء. ما زلنا لا نعرف إذا كان ذكراً أم أنثى، ي/تقف بالقرب من أحد المقاهي..

شاشة التلفاز والمشاهدون

الكرة الموجودة في الملعب ما زالت تتدحرج بين الأقدام، الجمهور في الشاشة يهتف ويشجع، المشاهدون يفعلون المثل.

المُشاهد يدخل الشاشة

11:44 ليلاً

المشاهدون في المقاهي والمنازل يتابعون مباراة البرازيل والكاميرون التي تترافق مع أصوات المفرقعات والرصاص من مشجعي الفريق البرازيلي في بيروت، بعد لحظات دوى صوت قوي هزّ المدينة، وهنا تغيّرت المواقع. مشاهدو المباراة أصبحوا هم الحدث، وانتقلو إلى داخل الشاشة.

لحظة وقوع الحدث وتداعياته في الـ 30 دقيقة الأولى

باتَ قاطنو المدينة جزءاً من المشهد الآن، معظمهم تأثر بالحدث، جسدياً ونفسياً، إذ سبّب التفجير أضراراً جسدية لمن كان بقربه، ونفسية لكل من سمع صوته. شعر بالاهتزاز الذي سببه أو سمع الخبر، وتابع ما نقلته وسائل الإعلام، (حالة القلق والرعب والخوف والهلع على نفسه أو على الآخر).

إذا افترضنا أن الجمهور الذي كان يتابع المباراة أو جزءاً كبيراً منه انتقل من حالة المُتابِع إلى المُتابَع من قبل المشاهدين في البلدان الأخرى عبر شاشات التلفزيون.

الإعلام المشاهِد

يعلّق المشاهدون عادةً أثناء متابعتهم المباراة بجمل سريعة متحمسة وانفعالية، مبنية على تشجيعهم لفريق محدد،على سبيل المثال: «الفريق

البرازيلي أكيد رح يفوز على كاميرون»، «لو انتبه الحكم كان هاد فاول»، «لو هجم الفريق الكاميروني من جهة اليمين كان دخل غول»، «لو ما ضرب اللاعب الطابة برجلو الشمال ما كانت طلعت برّات الملعب».

الإعلام اللبناني أخذ دور المشاهِد في نقله للتفجير، إذ تعامل مع النقل والتعليق على وقائع الحدث وتفاصيله، كما لو كان يتابع مباراة ما.

ـ قناة المستقبل: «معلومات عن سقوط 3 شهداء وأكثر من 20 جريحاً».

ـ قناة إل بي سي: «3 شهداء، و15 جريحاً في المحصلة الأولى لانفجار الطيّونة».

ـ المستقبل: «الصليب الأحمر اللبناني: الحصيلة 15 جريحاً إصابة معظمهم طفيفة».

ـ إم تي في: «حتى الساعة تأكد سقوط شهيد و4 جرحى والعدد مرجح بقوة للارتفاع».

ـ إل بي سي: «لا شهداء في الانفجار الذي حصل في منطقة الطيّونة».

ـ قناة الجديد: «الانفجار وقع في سيارة مرسيدس من طراز إم ال».

ـ المستقبل: «السيارة المستخدمة في تفجير الطيّونة نوع مرسيدس من طراز 180 موديل 1961».

ـ إم تي في: «الانتحارية أرادت تجاوز الحاجز ولكن عندما اشتبه بها العناصر قامت بتفجير نفسها».

ـ النهار: «الانتحاري تحدث معهما بلهجة سورية وبدا عليه الارتباك الواضح متذرعاً بأن عطلاً طرأ على السيارة. الشابان أسرعا إلى الحاجز لإعلام عناصر الجيش بالأمر وهدداه بذلك، وما إن شاهدهما يقتربان من الحاجز حتى فجّر نفسه».

في التعامل مع الموت الطازج

تشاهد لمى مباراة البرازيل مع كاميرون هي وأصدقاؤها في أحد المقاهي. لمى تشجع البرازيل، في حين يشجع أصدقاؤها الكاميرون. أيادي الجميع تتحرك بشكل انفعالي على مجريات المباراة. المقهى مكتظ بالمشاهدين وأعلام المونديال. يحدث شيء ما يقطع هذه الضوضاء. ينقل صاحب المقهى القناة إلى إحدى القنوات الإخبارية، «تفجير في الطيّونة». لمى ومَن في المقهى يستنفرون، يعلّقون على خبر الانفجار، يتصلون بالأقارب والأصدقاء للتأكد من سلامتهم. الموجودون في المقهى يتابعون ويعلّقون على وسائل التواصل الاجتماعي. بعد 15 دقيقة، يعيد صاحب المقهى القناة التي تنقل المباراة، يجلس الجميع، ويتابعون المباراة. تُدخل البرازيل هدفاً آخر. أصوات التصفيق تعلو وكذلك المناوشات بين مشجعي الفريقين.

لمى وماكينة الحماية

اعتادت لمى كغيرها في لبنان أن تشهد تفجيرات كثيرة، قريبة وبعيدة عنها، قُتل خلالها كثير من المدنيين. لكن الموت لم يقترب من لمى أو أقربائها وأصدقائها بشكل مباشر.

«الموت بهذا الشكل، لم يعد مفاجئاً أو مخيفاً، لكن استمرار حدوثه يجعلنا نشعر بالحزن واليأس، وبما أننا غير قادرين على إيقافه، علينا أن نحمي أنفسنا من آثاره، ومع الوقت (بتشتغل ماكينة حماية النفس لوحدا) في مثل هذه المواقف بشكل لا إرادي، أما في ما يتعلق بالقلق فإنه يتوقف فور تأكدك من سلامة من تعرفهم». تقول لمى. وتكمل: «وجودي في المقهى مع الأصدقاء جعل المدة الزمنية للقلق والاستنفار بخبر التفجير، قصيرة، والمباراة كانت إنقاذاً، لكن هذا لا يلغي شعوري بالحزن واليأس (وإنو فقعت معي). في النهاية ما فينا نعمل شي غير نعيش أو نحاول على الأقل».

أضافت: «صديقي مؤيد، ما قدر يكفي المباراة، حتى إنو عصّب منّا كيف قادرين نكفي والوضع هيك، ومشي».

انقسام الأنا

«بعتقد إنو نحنا قررنا نفكر إنو تعودنا، ومنحاول نتصرف على هيدا الأساس، بس الحقيقة إنو ما تعودنا، كلو موجود جوّاتنا، نحنا منخزّن كل هالأحداث اللي بشكل أو بآخر بتعطبنا، وبتأثر على كل شي منعملو بحياتنا، حتى لو ما كنا منتبهين إنو هي السبب»، يقول مؤيد، ويكمل: «ما قدرت كفّي المباراة، حسيت إني مني إنساني، إذا تجاهلت هالشي، بعدين نمت، وتاني نهار أنا ورايح على الشغل كان في جزء مني عم يتجاهل شو صار قبل بيوم أو عم بحاول، ما بعرف».

في هذه الحالة هل يمكننا القول إن التعرض بشكل متكرر لمشاهدة الموت الجماعي من خلال التفجيرات على سبيل المثال، جعلت من ردة الفعل تجاه حدوثها مجدداً، أمراً اعتيادياً وناسفاً لحالة الصدمة؟ هل غريزة البقاء أم إنكار فكرة الموت أم هو الإحساس بعدم القدرة على تغيير الواقع في الحاضر والمستقبل، ما أدى إلى انقسام الأنا في العملية الدفاعية؟

الإنسان يشعر أنه اعتاد على فكرة الموت، وفي الوقت ذاته الإنسان نفسه لا يعتاد على فكرة الموت.

من موت إلى موت آخر بـ «إشراف دولي»

2014/2/9

«والله ما طلعت إلا غصب عني»، هذا ما قاله أول الوافدين من المسنّين إلى حي الوعر في حمص وسط هتافات سكانها.

ملامح الوجه والصوت الثابت وابتسامة الوافد الثاني تؤكد حتمية النصر انعكاساً للصمود في المنطقة المحاصرة هناك.

المجريات في حمص وحلب مختلفة من حيث المبدأ، لكن هناك ما ربط الأحداث في المنطقتين: «النزوح»، توزيع سكاني يعيد النظام السوري تكوينه، إذ يقوم في حلب بإرغام السكان على النزوح إلى مناطقه دون إشراف دولي، بل تحت إشراف البراميل المتفجرة والقتل والدمار.

حمص

في حمص يتم إخلاء المناطق المحاصرة من عجزة ونساء وأطفال، إلى منطقة محاصرة أخرى تحت إشراف دولي، يتخلله قصف على المناطق المحاصرة ذاتها وخرق للهدنة المتفق عليها.

أمسكت بيد طفلها، أشاحت وجهها عن زوجها وابنها الشاب الصغير الذي لم ينمُ شارباه بعد، نظرت إلى الشارع المدمّر، المنازل المتهاوية، النفايات المتراكمة على أطراف الرصيف، اليوم سيخرجون، ويبقى

الشباب والرجال من إخوة وآباء وأزواج، وهي على يقين أن النظام سيشن هجمته عليهم قريباً. وضعت يدها على رأس طفلها الصغير وهمست في أذنه: «اذهب ودّع أباك وأخاك».

خرج 83 مدنياً من النساء والأطفال تحت سن الخامسة عشرة، والعجزة فوق سن الخامسة والخمسين بحسب هدنة وقف إطلاق النار ومدتها 4 أيام، يتم خلالها دخول المساعدات وإخلاء الأهالي، الذين ذهب بعضهم إلى منطقة الوعر «تحت سيطرة المعارضة» وآخرون «أخذهم النظام إلى مناطقه» بحسب أحد الناشطين.

وجود الأمم المتحدة في حمص لم يمنع النظام وشبيحته من إطلاق النار على العابرين من المنطقة المحاصرة إلى طريق الوعر، إذ أصيب أحد العجزة في بطنه ونُقل إلى المشفى، كما استهدف النظام قافلة المساعدات الإنسانية وقتل اثنين من ركابها.

أن يتم الاتفاق على نقل الأهالي من المنطقة المحاصرة إلى المنطقة المحاصرة الأخرى، التي ترزح تحت الحصار منذ أكثر من 190 يوماً تقريباً، فيما القصف مستمر وإطلاق النار من قبل القناصة المتمركزين على أطراف الحي بموافقة الأمم المتحدة، يثير استغراب الكثيرين.

«لا أدري كيف وافقت الأمم المتحدة على إخراج المدنيين من حصار إلى حصار»، يعلّق الناطق باسم ائتلاف شباب الثورة في محافظة حمص، حسن أبو الزين، «واليوم تجمّع سكان الأحياء الموالية لمنع خروج المدنيين وإدخال المساعدات لهم، كما قام النظام بخرق الهدنة وقصف الأحياء المحاصرة بالهاون والتي شاهد سقوطها مندوبو الأمم المتحدة».

حلب

اقترب رجل مسنّ من ابنيه، «ألن تنضما إلينا؟ البقاء هنا يعني حتمية الموت، لو كنا داخل المنزل لمتنا بعد سقوط البرميل عليه، ولقد سمعت

أن المعبر سيتم إغلاقه قريباً». لكنهما رفضا محاولة أبيهما الأخيرة، ثم ودّعا والدهما وأمهما وأختهما الصغيرة. بدأت أصوات العابرين تعلو وسط أصوات القصف، نظر الأب إليهما. ابتسما، واختفت العائلة بين الحشود المتجهة إلى الطرف الآخر.

«بدأ نزوح سكان المحرر عندما استهدف النظام منطقة الميسر ومساكن هنانو بالبراميل المتفجرة. زاد النزوح في الأيام القليلة الماضية بعد الإشاعات التي نُشرت حول أن النظام سيقوم بتدمير حلب بالكامل بعد أن يغلق المعبر»، يقول الناشط الإعلامي وائل عادل.

ويضيف: «ما زالت هناك آثار دماء على بنطالي بعد أن أصاب قناصة النظام أحد النازحين في صدره و3 آخرين إصاباتهم خطرة، قمنا بإسعافهم إلى أحد المشافي الميدانية».

معبر بستان القصر، «كراج الحجز»، حيث المواجهة اليومية لأهالي حلب مع احتمالية الموت.

المصوّر والناشط حسام قطان (22 عاماً)، يذهب كل يوم إلى المعبر ليصوّر رحلة العبور هذه. «سمعت صوت رصاص كتير، لقيت الناس عم تركض يمين وشمال، وبعد شوي لقيت ولد صغير واقف على جنب وعم يبكي، وأبوه مسطح على الأرض ومتصاوب وما حدا عم يقدر يقرّب، بقي ينزف شي نص ساعة قبل ما يسعفوه، لأنو كل ما حدا كان عم يحاول يقرّب ببلش القناص يطلق رصاص عليه».

لم يعد المعبر رحلة عبور يومية فقط لأكثر من 4000 مدني من تجار وطلاب وعمال وموظفين في الدوائر الحكومية الذين يسقط منهم شخص أو اثنان كل يوم على يد قناصة النظام المتمركزين على مئذنة جامع الرئيس التي تكشف كل المعبر وسوق الخضرة، بل تحوّل إلى المنفذ الذي سيوصلهم إلى المنطقة المحتلة، التي أصبحت بالنسبة لهم أكثر أماناً.

في كلّس شهد معبر السلامة الحدودي ازدحاماً شديداً الأسبوع الماضي. قامت الجهة التركية بإغلاقه إثر عدم استيعاب المخيّم في الطرف الآخر أعداداً أخرى من اللاجئين بعد دخول 700 عائلة جديدة إليه، يقول الناشط فراس: «يُعتبر هذا النزوح الأكبر منذ بداية الثورة، إذ هرب سكان حلب الشرقية المحررة، بسبب قصف النظام مناطقهم بالبراميل المتفجرة».

العام الثالث، وتداعيات جنيف 2، خيار بين الموت بالبراميل والقصف والجوع والمرض، أو التوجه إلى مناطق القاتل، حيث كل الاحتمالات مفتوحة فيما يتعلق بالاعتقال والتعذيب والقتل أيضاً.

الهوية المؤقّتة: فلسطين ـ دمشق ـ بيروت

«في الذكرى الثالثة للثورة السورية»

2014/3/13

تفصلنا عن الذكرى الثالثة للثورة السورية 48 ساعة تقريباً، عام ثالث انقضى مشبعاً بالدم والدمار والغياب، عام مضى وأنا خارج دمشق كملايين مثلي، أتشبّث بالتفاصيل بقوة خشية أن تخونني ذاكرتي يوماً، عن تلك المدينة التي حضنت طفولتي ومراهقتي وشبابي، وحريتي وبداية هرمي المبكر.

بيروت ـ الهرم المبكر: تُحاول إمساك القلب بقبضة اليد كي لا تقع في هلوسات الحنين المفجع إلى تلك القهوة الصباحية ما بين شارع العابد والشعلان، وتجمّعات الأصدقاء، والأحلام الصغيرة في البقاء والعمل، ومخططات قديمة عن المستقبل، وعاما الثورة هناك. تبذل جهداً كبيراً في محاولة خلق عالمِك الصغير هنا في بيروت، بحثاً عن منزل وعمل وبعض الأصدقاء والأماكن التي تذهب إليها، لأنك تعرف أن هناك وجوهاً تشاطرك البحث.. البحث عمّا يشبه بلدك. لكن مكانك الجديد ليس إلا ممراً للكثير من الأصدقاء في رحلة القادمين والمغادرين، فتتحوّل إلى محطة قطار (ترانزيت). وبعد أشهر قليلة، تخونك قدماك، ويضعف جسدك وتخور قواك، فأنتَ اليوم هرمٌ للغاية.

الذاكرة مليئة بالثقوب، العودة إليها تكلّفك كل الطاقة التي بقيت لديك، وتلاشي الكثير من الصور يدفعك للتأكد من أنك بدأت تمر بالمرحلة الأخيرة من التطور البشري، الكهولة.

الكويت ـ دمشق: تختزن ذاكرتي من طفولتي صوراً ضبابية، تعود لسنة 1991، عن الملاجئ والحدود، عن تلك الشاحنة المحمّلة بأمتعتنا، التي ظننت حينذاك أنها تلاحقنا طوال الطريق من الكويت إلى دمشق، مروراً بدولتين عربيّتين، جعَلت إحداها من السيارة التي كان يقودها والدي غرفةً ننام فيها تلك الليلة، خشية أن ندخل أراضيها ونستقر فيها نحن اللاجئين الفلسطينين السوريين. وتفاصيل أخرى لا أتذكر منها إلا ما أخبروني به، إلى تلك اللحظة التي أُغلِق عليّ باب الزنزانة في 2011/3/25، فاختفى الحاضر وجاء الماضي جلياً متمثلاً بنحيب والدتي الهادئ في المقعد الأمامي طوال رحلة الأيام الثلاثة تلك، وأنا في الخامسة من عمري متشبثة بدمية صغيرة، وعينا والدي اللتان لفح السواد أطرافهما، ومقتل عمتي وابنتها، وابن خالتي، وخالي، حينذاك.

دمشق: فُتح باب الزانزنة، وجُررت مغمضة العينيّن مكبّلة اليدين إلى غرفة التحقيق، وهناك حمّلوني غربة كنت أتجاهلها ضمنياً: «هاي مو بلدك، بتحبّي نرجع نزتّك على الحدود؟!». كان طريق العودة إلى الزوايا الأربع طويلاً وبارداً وأكثر اسوداداً، ارتطمتُ خلالها بأجساد مكبّلة ومبعثرة على أطراف الممر الطويل، وبين الأنفاس المتقطّعة لمن هم خلف الأبواب بعد عودتهم من جلسات التعذيب. التعذيب ذاته تعرّض له الآلاف من المدنيين السلميين، والكثير من أصدقائي.

بيروت: قال لي أحد الأصدقاء السوريين: «بتحسّي بيروت أخت الشام، بَس من غير أب». شقيقة مدينتي تدير ظهرها للبحر ولقاطنيها،

أبناء بيروت من جيلي يحملون ثقلاً أيضاً، وثقوباً ما زالت تتناثر على جدران الأبنية القديمة، حكايا احتلال النظام السوري للبنان، حدّثوني عن الحواجز، عن الملاجئ والقصف، عن مقتل أصدقاء واختفاء آخرين، عن النظام السوري، وما قام به في لبنان، الذي يشبه بشكل أو بآخر ما يقوم به في سورية. وما قامت به إسرائيل في لبنان، ويشبه بشكل أو بآخر ما قام به النظام السوري في بلادنا، لكن بشكل أكثر فجاجة...

دمشق: أرجل متراصفة، ظلال الأجسام المتمايلة المتلاصقة، الأيدي على الأكتاف، الصوت يعلو شيئاً فشيئاً: «سكابا يا دموع العين سكابا على شهداء سورية وشبابا!»، وكأننا خارج الزمن، القلوب تخفق بشدة، والكف يضغط على الكتف الذي يسند نفسه عليه وكأنه يقول «لا تخشَ شيئاً.. أنا هنا.. بجانبك»، عرس ليلي جال معظم أحياء المدينة طوال عامي الثورة.

شعرت برأسي يرتطم أرضاً، لم أتحرك فوراً، استطعت أن ألمح من تحت «عصابة العينين» ممراً طويلاً وأقداماً ساكنة. كان البرد في أشُدِّه حينذاك، لا أدري كم مرّ من الوقت وأنا أقف هكذا، اقتربت قدمان باتجاهي، شدّني من شعري ورفعني به، أمسك بكتفي ودفعني إلى الحائط، فسمعت طقطقة عظام أنفي، «وجِّك على الحيط!».

بيروت: المكان المحمّل بالتناقضات، التي تشبهنا كثيراً هذه الأيام، هو ربما انعكاس للحروب التي مرّوا بها هنا والتي نعيشها نحن هناك، ولكن بشكل مختلف، مدينة البحر هذه فيها الكثير من الحبّ ومشاعر الألفة، الكثير من الطائفية ونزعات عنصرية، يواجهك هذا الخليط يومياً في كل ما تقوم به، قالت صديقة لبنانية: «من بعد ما صار عندي أصحاب سوريين ببيروت، وصرت زورن ببيوتن، كأنو رجعت اكتشفت المدينة عن جديد، وتعرّفت على حارات (متل ما بسمّوها السوريين) ما كنت بعرفها قبل». فيما قال لي أحدهم في بيروت: «أنتم السوريون ما رح تتركونا بحالنا، خربتوا

البلد، جبتوا التفجيرات وخليتوا البلد ترجع تعيش بحرب، نحن كل شي بدنا ياه إنو تطلعوا من هون ونرجع نعيش بأمان». هذا هو الحال.

دمشق ـ (من مقال سابق): الساعة 10 ليلاً، في رأسي مدينة «صُوَر»، وصوت واحد يتردّد بقوة: «أنا ما رح موت». أذكره جيداً... لقاء العيون في تلك الليلة كان صعباً جداً، كما الوقوف تماماً حينذاك.

ثقل الموت قاسٍ، يمكن إدراكه في وجوه الأصدقاء المبعثرة على سلم المنزل الطويل الذي يبدو صاعداً إلى السماء، وفي صمت المدينة الصارم المقطوع بدقات قلوبنا التي أصبحت واحدة، وأصوات تدحرج القذائف على أطراف المدينة، وجه صديقتي، «حبيبته»، وملامحه معاً. كان النكران سيد الموقف في تلك الليلة، كل شيء كان يبدو زائفاً.. مقطع الفيديو.. مكالمات واتصالات تؤكد ما حدث.

صفحات الفايسبوك تكذّب، المحطات الإخبارية تكذّب.. حتى نحن، الواقفين على الدرج الطويل، كنّا نكذّب مردّدين: «ليس هو بالتأكيد.. لا يمكن ذلك»، أن «نرى جسد صديقنا صامتاً مدوياً راحلاً عنا».

الهوية المؤقّتة: فلسطين ـ دمشق ـ بيروت: اسمي ضحى حسن، «حسن» ليست نسبتي الحقيقية، فالواقع أن جدّي، أثناء خروجه من فلسطين، كتب بعجلة اسمه واسم والده واسم جده ونسي النسبة، لا أدري لِمَ لم يسأل أبناؤه لاحقاً عن نسبتهم الأصلية، لكنهم كانوا يتحدثون كثيراً عن حيفا ويافا، أعادوا قصّ الحكايا ذاتها التي رواها لي جدي عندما كنت صغيرة، وعندما عرفت أنني لا أحمل اسم العائلة الحقيقي، كان الأوان قد فات، إذ قال لي جدي الهرِم: «اسم العائلة هو يا إما... أو... أو... مش متذكّر، بس نحن كنا عيلة كبيرة بفلسطين، من حيفا»، وفي جلسة أخرى قال: «يا بنتي نحن أصلنا من لبنان، بس سافروا أجدادنا على فلسطين،

بعدين نزحنا وقت 48، رحنا على الشام، بعدين على الكويت، وبحرب الخليج رجعنا على بلدنا الشام!».

يبدو أن قصة الأصول اللبنانية، تعود إلى زوجة جدي اللبنانية، أي جدتي، التي توفيت قبله بأعوام، فما كان منه في هذا العمر، وقبل وفاته بأيام، إلا أن ينسب أصله إليها.

اهتمامي بالقضية الفلسطينية وحبي لفلسطين، لم ينبعا من أصولي الفلسطينية، فأنا لم أزر فلسطين يوماً كما لم يفعل والدي، هو ذاته اهتمام السوريين واللبنانيين وغيرهم بالقضية، الذين ضحوا بحياتهم أيضاً من أجلها. وثيقة السفر: «لاجئ فلسطيني سوري»، وهوية مؤقتة هي ما أحمل، لكنني في سورية لم أشعر باللجوء يوماً، ذاكرتي تحمل «خريطة حياتي في دمشق منذ عامي الخامس حتى السابع والعشرين، هذه الذاكرة هي جواز سفري وهويتي الدائمة».

أما في لبنان فعام واحد كان كافياً بأن يُشعرني باللجوء الفلسطيني والسوري معاً، الاصطدام المستمر بالأسئلة عن المكان والهوية والدين، من أين أنت؟ من «الشام»، من وين من الشام؟ من «فلسطين»، يعني أنت فلسطينية؟ أنا «فلسطينية وسورية»، بعضهم قال: «أنتِ فلسطينية مش سورية»، وبعضهم الآخر قال: «أنتِ سورية مش فلسطينية، لأنو بحياتك ما شفتِ فلسطين»، إلى جانب الارتطام بالقانون الذي يميز، من حيث الإقامة، وجود السوري في لبنان عن الفلسطيني السوري في لبنان.

في مكان واسع جداً، حقيبة سفر نصف مغلقة بدأ يكسوها الغبار، وإلى جانبها حقائب أخرى، يد تدفع بحقيبة جديدة إلى جانبهم، تلقي الواصلة الجديدة نظرة إلى باقي الحقائب، تمسك الحقيبة سحابها بقوة، فهي تظن أنها ستغادر قريباً.

في الطريق إلى القبر

2014/4/8

قبل عدّة أيام، وبينما كانت أصوات القصف تطرق أطراف دمشق، وخبطات الهاون العشوائية تقتلع روحاً ما، توفي والد أحدهم بسبب سكتة قلبية. وهذا ليس حدثاً مختلقاً.

القبر ـ الساعة 9:30 ليلاً

بحث الشاب ابن الرجل المتوفى وأصدقاؤه عن قبر، الأمر لم يكن سهلاً، إذ إن أولاد الميت يحملون هويات من ريف دمشق اعتقلوا بسببها أكثر من مرة. لذلك، توجّب عليهم إيجاد قبر في مقبرة تقع قبل الحاجز.

بعد ساعات طويلة من البحث، وجدوا القبر المناسب بمبلغ مليون ليرة سورية. فاستهجن أحد الشباب قائلاً: «كنا نشتري بيت بهيك مبلغ»، فأجابه المسؤول في مكتب دفن الموتى: «والله يا ابني هالأيام الطلب على القبور أكتر بكتير من البيوت».

حلب ـ الساعة 9:30 ليلاً

خبر ـ لجان التنسيق المحلية: قصف النظام السوري أحياء مدينة حلب الشمالية بأكثر من 33 برميلاً متفجراً، ما أودى بحياة 88 مدنياً.

غسيل الميت ـ الساعة 8:30 صباحاً

أخذا نفساً عميقاً وحملا التابوت على أكتافهما، سارا في شوارع العاصمة دمشق المكتظة بسبب الحواجز الأمنية، من شارع بغداد إلى باب شرقي، لغسيل الأب المتوفى.

أربعون دقيقة تقريباً هي المدة التي استغرقتها المسافة التي قطعاها على الأقدام، تفادياً لعقبات استخراج موافقات أمنية تجيز عبور كل تلك الحواجز.

الغوطة الشرقية ـ الساعة 8:30 صباحاً

خبر ـ شبكة شام الإخبارية: سقوط أكثر من 150 مدنياً وعسكرياً في كمين لقوات النظام السوري و«حزب الله» في أثناء مغادرتهم الغوطة الشرقية في ريف دمشق.

الدفن ـ الساعة 10:15 صباحاً

غمرت أصابعها بالتراب وهي تقرأ آيات من القرآن بصوتٍ خافت. يحرّك قدمه بتوتر، ينظر حوله، يحدّق في جثة والده التي يغمرها حفّار القبور بالتراب شيئاً فشيئاً. ثلاثة شبان يقفون إلى جانب الزوجة والابن، يحدّقون جميعاً في الحفرة، بينما يقف حولهم عناصر أمن، يطالبونهم بإنهاء عملية الدفن بسرعة ومغادرة المقبرة.

دمشق ـ الساعة 10:15 صباحاً

خبر ـ لجان التنسيق المحلية: مقتل اثنين من المدنيين جراء سقوط قذيقة هاون على دار الأوبرا القريبة من ساحة الأمويين.

قبل عدّة أيام، قام النظام السوري بقصف قدسيا، ما أجبر عمّ أحدهم على الترجّل من سيارته والركض نحو ضاحية قدسيا. في صباح

اليوم الثاني، قرّر الرجل الذهاب لإحضار سيارته والخروج من البلدة. مدّ يده نحو السيارة، رجفت يداه بقوة، وسقط على الأرض. هذا ليس حادثاً مختلقاً.

الموت ـ الساعة 11:00 صباحاً

أغلقت الطرقات من قدسيا وإليها، وبقي «العم» مستلقياً على الأرض لمدة ساعتين حتى لفظ أنفاسه جراء سكتة قلبية.

درعا ـ الساعة 11:00 صباحاً

خبر ـ لجان التنسيق المحلية: سقوط قتيل وعدد من الجرحى جراء قصف الطيران المروحي لموقع بالقرب من طيبة الإمام في حماة.

موظف البلدية ـ الساعة 11:45 صباحاً

اقترب موظف البلدية من الجثة، وحملها إلى جامع العمر في البلدة. أمسك بهاتف العم وأخرج منه الرقم الأخير الموجود على قائمة الاتصالات، واتصل بزوجته ليخبرها عن وفاة زوجها.

درعا ـ الساعة 11:15 صباحاً

خبر ـ شبكة شام الإخبارية: تدور اشتباكات عنيفة بين الجيش الحرّ وقوات النظام في حيّ المنشية في درعا البلد.

الجثة ـ الساعة 12:35 ظهراً

تمكّن أقرباء العمّ المتوفى من الحصول على موافقة أمنية تجيز الدخول إلى قدسيا وإخراج الجثة. بعد وصولهم إلى جامع العمر، وضعا الميت في «طبّون» السيارة كما نصَّ التصريح. وفي أثناء خروجهم من الجامع، وبالقرب من الحاجز، بدأت الاشتباكات بين الجيش الحرّ وعناصر

الأمن، لكنهم استطاعوا إيصال العم المتوفى إلى «مشفى الباسل» في مشروع دمر، ليدفنوا الجثّة في صباح اليوم التالي.

حمص ـ الساعة 12:30 ظهراً

خبر ـ لجان التنسيق المحلية: مقتل الأب فرانسيس فندرلخت على يد مسلّحٍ مجهول، داخل كنيسة الآباء اليسوعيين في حي بستان الديوان في حمص القديمة.

على روح الميت ـ الساعة 1:00 ظهراً

في أحد جوامع منطقة الشيخ محي الدين، تجمّع أقرباء العم وأصدقاؤه للصلاة على الميت، دخل عناصر الأمن إلى الجامع وطلبوا منهم التصريح الأمني الذي يخوّلهم فعل ذلك، طلب أخو الميت من الحضور الانتظار ريثما يذهب لإحضار الموافقة الأمنية من فرع الأربعين، وهو «فرع مكافحة الإرهاب»، ويقع في منطقة الجسر الأبيض في وسط دمشق.

دخل الرجل إلى مكتب المسؤول الأمني في الفرع، وقدّم طلب موافقة «الصلاة على روح الميت»، فسأله رجل الأمن: «فيك تضمن إنو ما يصير شي؟»، أجابه الرجل: «أصغر واحد فينا رح يكون عمرو 50 سنة». فأعطاه تصريحاً بالصلاة على روح الميت.

الرقة ـ الساعة 1:00 ظهراً

خبر ـ شبكة شام الإخبارية: أعدم تنظيم القاعدة في العراق والشام «داعش»، أحد الشبان في ساحة مدينة الرقّة بتهمة السرقة والقتل المتعمد.

الطريق ـ الساعة 1:45 ظهراً

الموكب يتحرك خلف سيارة نقل الموتى، باتجاه «المهاجرين» لدفن العمّ. يوقفهم حاجز للأمن، يفتش الجميع وكذلك الجثة. قبل أن يصلوا

إلى المقبرة، يتوقفون مجدّداً عند حاجز اللجان الشعبية، تفقد عناصره هوياتهم، وكذلك الميت. كشفوا عن الجثمان.

حصيلة القتلى لهذا اليوم ـ الساعة 1:45 ظهراً

حتى منتصف نهار الاثنين، أفادت لجان التنسيق المحلية في سورية بأن مئة قتيل سقطوا اليوم على يد النظام السوري في سورية، معظمهم من حلب.

«انتخبوا» ماهر حجار رئيساً لـ «سورية الأسد»

2014/4/30

أعلن «رئيس مجلس الشعب السوري» محمد جهاد اللحام تلقّي المجلس إشعاراً من «المحكمة الدستورية العليا» بتقدّم بشار حافظ الأسد بطلب ترشّح لمنصب رئاسة الجمهورية العربية السورية، ليكون هو المرشح السابع لهذه الانتخابات التي قرر الأسد نفسه إجراءها في حزيران المقبل.

أمّا من ترشّحوا إلى الأسد، فهم ماهر عبد الحفيظ حجار، حسان النوري، سوسن الحداد، سمير معلا، محمد فراس رجوح، وعبد السلام سلامة.

بعد وفاة الرئيس السوري السابق حافظ الأسد في حزيران 2000، وهو والد «المرشح السابع» الحالي، جرى آنذاك تعديل الدستور، ليتسلّم الأسد الابن الحُكم، وفق «انتخابات» حصل بنتيجتها على 97% من أصوات الشعب السوري.

في ذلك الوقت لم يكن هناك من خيار للمواطنين، سوى أن يضعوا علامة على خانة «نعم» في ورقة التصويت، وإلّا سُحبوا إلى أقبية فروع المخابرات. «أمسكتُ يومذاك بالورقة وتردّدتُ قليلاً قبل أن أضع الإشارة، فإذا بالموظفة التي تجلس على الطاولة تشير إليّ بإصبعها على الجواب «نعم»، وحدّقت في وجهي بخوف، نظرتُ حولي فوجدتُ عناصر الأمن

منتشرين في كل مكان، ابتسمت، وضعت الإشارة على نعم، وخرجت. هكذا فعل الجميع»، قال أحد المواطنين السوريين.

عشية الاستفتاء الرئاسي الذي تسلم فيه بشار الأسد رئاسة الجمهورية العربية السورية، عام 2000، قدّم التلفزيون السوري تقريراً عن شخصه. بدأته المذيعة بقولها: «كان منارةً للأدب والتهذيب والانضباط والاجتهاد في المدرسة مع رفاقه ومع أساتذته والإداريين».

لكن الرجل «المهذّب والمجتهد» نفسه، قام لاحقاً بقتل 124927 شخصاً تقريباً من السوريين، بينهم أكثر من 14314 طفلاً و12935 امرأة، بقصف قواته المدن والأحياء السكنية وتدميرها. كما قتل أكثر من 11 ألف شخصاً تحت التعذيب، بحسب الشبكة السورية لحقوق الإنسان.

وأكملت المذيعة وصفها بشار الأسد عام 2000: «شديد التواضع، ودود مع الجميع، ولم يشعر يوماً أي أحد من المحيطين به، أساتذة وطلاباً، أنه أحد أهم زعماء الشرق الأوسط».

لكنّ «الرجل الودود» هذا، حاصر مدناً عدة لاحقاً، ما أدى إلى وفاة أكثر من 279 مدنياً من الجوع، منهم 135 في مخيّم اليرموك و109 في الغوطة قرب العاصمة دمشق وحدها.

مذيعة التلفزيون السوري قالت عام 2000 إن «الرئيس بشار الأسد يذكره العديد من المواطنين البريطانيين الذين ساهم في رعايتهم الصحية، بأنه متواضع ولطيف».

إلا أن «بشار الأسد»، قتل الدكتور البريطاني عباس خان في أحد فروع المخابرات السورية، فيما ادّعى النظام أن خان شنق نفسه في السجن قبل أن يطلق سراحه بـ 4 أيام.

المذيعة كانت ذكرت أن بشار «يتميّز بقامة طويلة ممشوقة وعينين زرقاوين، نظراته ثاقبة وحادة تدل على أفقه البعيد واستشرافه بالمستقبل، وتذكّر بشخصية أبيه الراحل حافظ الأسد».

وهنا أصابت.

إذ في عام 1982 شنّ حافظ الأسد حملة وحشية على مدينة حماة، قتل فيها أكثر من 25 ألف مدني، كما تعرضت المدينة للتدمير، واعتقل المئات الذين لم يعرف مصير الكثير منهم حتى اليوم. فسار الابن على خطى والده في المدينة ذاتها، إذ قام منذ بداية 2011 بقتل أكثر من 6598 مدنياً واعتقال 4301 مواطن.

المذيعة كانت استرسلت بحديثها عن صفات الرئيس الجديد: «يحيط من حوله باحترام ولطف كبيرين. منضبط، هادئ. شغوف بالمطالعة ويؤمن بالتكامل بين الأجيال والمراحل».

وثّق مركز توثيق انتهاكات حقوق الإنسان في سورية أن النظام السوري بقيادة بشار الأسد اعتقل أكثر من 1265 طفلاً دون 18 سنة.

واستفاضت المذيعة بشخص الأسد الابن: «نقل سورية نقلة نوعية باتجاه أحدث المنتجات الصناعية والأتمتة من خلال نشر المعلوماتية وجعلها متاحة لجميع المواطنين».

استخدم الرئيس الابن والمرشح السابع لانتخابات 2014 الأسلحة الكيماوية في عدة مدن سورية، إذ قام بقصف الغوطة الشرقية والغربية في ريف دمشق بالغازات الكيماوية، ما أدى إلى مقتل 1500 شخص في يوم واحد. كما قصف الأسد مدن الشمال السوري وحمص كذلك، بالبراميل المتفجرة والسكود، ما أدى إلى مقتل آلاف المدنيين وتدمير كامل لأحياء عدة.

العائلة الحاكمة

«أُهيب بالمواطنين السوريين جميعاً عدم إطلاق النار تعبيراً عن الفرح بأي مناسبة كانت، خاصة ونحن نعيش أجواء الانتخابات التي تخوضها

سورية لأول مرة». صرح «بشار الأسد» بعد ترشحه لانتخابات الرئاسة هذه المرة.

وبحسب التصريح اعترف بشار الأسد بأن سورية تعيش أجواء الانتخابات لأول مرة، أي أنه أقرّ بحكمه وعائلته لسورية طوال 44 عاماً فارضين أنفسهم على الشعب السوري بصيغة الوراثة.

إلا أن المذيعة قالت يوم قدّمت بشار الأسد: «انتُخب قائداً لمسيرة الحزب والشعب، أميناً عاماً للجنة المركزية للحزب، أميناً قطرياً لحزب البعث العربي الاشتراكي، عُرِف عنه محاربة الفساد وعُرِف عنه أيضاً الفكر الحداثي المتطور».

وهذا الفكر الحداثي تجلّى بـ«عفو رئاسي» أصدره بشار الأسد في بداية الثورة 2011، أطلق بموجبه سراح مئات المساجين، منهم أبو محمد الجولاني، نديم بالوس وهو أحد قادة «داعش»، وبهاء الباش القائد في جبهة النصرة، وقائد جيش الإسلام زهران علوش، وحسان عبود أحد زعماء أحرار الشام، وأحمد عيسى الشيخ أحد قادة ألوية صقور الشام.

حين يقاس القبر بجسد حيّ

2014/5/8

حدّقَ في وجوه مَن حوله، نظرَ إلى الجسد المغطّى بالكفن، وجه صديقه النائم؛ قفز إلى الحفرة أمامه، مدَّ جسده بالكامل فيها، لامس بأطراف أصابعه حواف القبر، وحفَّ بقدميه التراب، عيناه تحفران السماء، غطّى بكاءه. تأكد من اتساع القبر لجثمان صديقه: «جفرا، سامحني، السما ما بتسعك حتى يسعك القبر!».

«كل شبّ استشهد بالمخيّم هو جزء من حياتي، خسارتن خلّتني فكّر بقيمة الحياة وبأهمية إنو عيش أو موت»، عبد الله الذي يبلغ من العمر 18 عاماً دَفن مع محمد وإبراهيم أصدقاء كثراً، «علاقتي مع الشهداء ما بلّشت مع الثورة. بسّ الثورة قرّبتنا من بعض أكتر. كنا نحاول خلق طقوس لكسر الحصار، مرّات بقعدة إبريق شاي، بسّ الصواريخ كانت دايماً تاخد صديق ورا صديق، ونحن نغيّر البيت ورا البيت».

حاصر النظام السوري مخيّم اليرموك لما يقارب العام، تعرّض خلالها المخيّم لقصف عنيف أدى إلى مقتل العديد من المدنيين. كما أغلق النظام كل منافذ إدخال المواد الغذائية والطبية ما أسفر عن مقتل المئات جوعاً.

في الموت

تتسع حدقتا عينيه، قلبه يدق بهدوء، ببطء شديد، كأنه على وشك أن

يتوقف؛ الرصاصة تقترب أكثر وأكثر حتى اقتحمت رأس الشاب، الكاميرا مازالت تدور، قفز ليسحب جثة صديقه، وإذ برصاصتين تُخرجان «أمعاءه» إلى خارج جسده؛ يجرُّ نفسه إلى الأسفل سانداً بكفّه ما يخرج من معدته، «استشهد منير».

«خسرت كتير.. يمكن الخسارة تبعي هي ربح لإلن، لأنو الموت ما بوجّع غير الأحياء»، أُصيب الفتى العشريني في بطنه أثناء قيامه بتصوير الاشتباكات. «اسمي ابراهيم، فلسطيني سوري من حيفا»، هكذا عرّف عن نفسه، «أنا ولدت بسورية، بحس حالي ابن القضية، إذا السوري عندو مبرر ليكون بالثورة أنا عندي اتنين، أول واحد لأني فلسطيني وتاني واحد لأني سوري».

عاش اليرموك 3 محاولات لـ «الهدنة»، كانت نتيجة الأخيرة منها فكّ الحصار التمويني فقط عن المخيّم، في حين ما زال المخيّم يقبع في الظلام بعد مغيب الشمس، إذ لا كهرباء إلا من مولّدات يتمّ تشغيلها بفترات محددة بسبب نقص المازوت والبنزين، كذلك الماء ومعظم الخدمات الأساسية.

في الغياب

ليلة هادئة للغاية. يقترب من المجموعة التي تقوم بخَبْزِ «خُبز العدس»، يأكل قضمة منها، يلتفت نحو صديقه أحمد الذي يجلس قريباً منه يعمل على حاسوبه الشخصي، وإذا بصوت صاروخ يقترب بسرعة هائلة منهم، يهتزّ المكان، يدير وجهه نحو باقي أصدقائه، يلتفت مجدداً ويرى الصخرة الكبيرة تتهاوى على أحمد، ينظر إلى الأعلى وإذا بصخرة أقل حجماً تهجم على رأسه، يسقط. دقائق ويُحمل جسده، «مجد، أحمد.. أحمد»...

«المخيّم بالنسبة إلي هو وطن بكل معنى الكلمة، فيه انولدنا، وتربّينا، ودرسنا، وبنينا فيه علاقات صداقة، وفيه حبّينا»، قال محمد، الصديق

الثالث الذي شهد أيضاً الموت حيّاً، «كل ما يستشهد واحد من صحابي كان يصير معي رهاب من المكان، بس بنفس الوقت كنت اتمسك فيه أكتر».

عن الحياة

في أحد شوارع الحي، تجلس المنازل المدمّرة على طرفي الطريق، تحمل بين شقوقها حكايات وذكريات وبقايا قذائف، وفي المنتصف تماماً هناك، تلتف مجموعة من الشبان والأطفال حول «أيهم»، تعلو الموسيقى شيئاً فشيئاً، كذلك أصواتهم، مشهد سوريالي، الأسود يتلاشى، ويتحوّل المكان إلى حديقة تعود فيها الحياة لدقائق.

«أيهم» يجول اليرموك مع البيانو في محاولة للاستمرار، وكذلك عدد كبير من الشبان والشابات الذين يحاولون يومياً بتنظيم نشاطات مع الأطفال والمسنّين، إلى جانب قيام المؤسسات الموجودة في المخيّم بورشات تدريبية وتعليمية تتعلق بمهارات التفكير والعمل الجماعي والمواطنة والإعلام والتمريض.

«تعلّمنا بالحصار إنو 5 ساعات كهرباء إذا انوجد المازوت، أحلى من 24 ساعة، وصوت المولّد حنون!»، يقول عبد الله، «صرنا نحسّ بقيمة الأشياء، بقيمة الأعشاب يلّلي على الأرض، بقيمة الورق على الشجر، بقيمة البسينات والكلاب، لأنو ممكن يكونوا وجبة إلك بيوم ما»، ويكمل: «الحصار علّمنا إنو لواح الصبّار بتصير أكل. بس الضربة على الشيف. وإنو الشاي بلا سكر أطيب، والناس هبل ما بتعرف هاد السر».

عبد الله، محمد، وإبراهيم، يكملون اليوم ما بدؤوه مع رفاقهم، بالقرب جداً من شواهد قبور الأحبة، «أهم قرار أخدناه نحن الـ 3 الأخيرين، إنو نروح سوا ونيجي سوا، بحال صار شي، يصير لإلنا مع بعض، ما عاد نتحمّل خسارة جديدة بالمطلق».

تهوي اليد.. يُغرَس الوتد

2014/5/16

بسطت لحافاً صغيراً على الطاولة، حملت طفلها الذي يبلغ عاماً واحداً فقط، وشدّت اللحاف باتجاهه وضمتهما إلى صدرها. ناداها زوجها بإلحاح أن تسرع في الخروج من المنزل، فغطّت رأسها بشال خفيف، وخرجت. في الطريق أخبرت زوجها أنها تركت نافذة المطبخ مفتوحة، أمسك جدي بيدها وأجابها: «يومين وبنرجع ما رح يدخل حدا على البيت».

النكبة ـ فلسطين

احتلت إسرائيل المدن الفلسطينية، وقامت بتشريد وتهجير مئات آلاف الفلسطينيين، كما ارتكبت مجارز عديدة، في محاولة منها للسيطرة على البلد. لجأ الفلسطينيون آنذاك إلى الدول العربية المجاورة، كما لجأ آخرون إلى المدن والقرى والبلدات الآمنة.

خرج جدي من مدينة حيفا برفقة جدتي وابنهما (أي عمي الأكبر)، ومشيا مع القوافل المهاجرة، رجالاً ونساءً وكهولاً وأطفالاً. حمل بعضهم ما استطاع قبل أن يُقتل ويُباد. كما خرج آخرون محمّلين بأجسادهم وعائلاتهم فقط، وأملٍ قريبٍ في العودة.

النكبة ـ سورية

اجتاح النظام السوري المدن والقرى السورية، في محاولة منه للقضاء

على الثورة والثوار وكل ما يرتبط بهما؛ الأحياء السكنية، البنى التحتية والمدنيين. مع مرور الوقت واستمرار النظام في عملية التدمير الممنهج وملاحقة المواطنين وقتلهم واعتقالهم، هُجر الكثيرون إلى الدول العربية المجاورة، كما نزح عدد كبير إلى البلدات والقرى والمدن التي تعتبر أكثر أماناً إلى حد ما، حاملين معهم القليل من متاعهم. وحمل آخرون أنفسهم فقط مجرّدين إلا من الثياب التي يرتدونها.

نزح محمد مع زوجته وطفليهما من حرستا بريف دمشق تحت قصف شديد من قبل النظام السوري، إلى منطقة التضامن في العاصمة دمشق واستقر في إحدى المدارس، ثم تعرضت منطقة التضامن لاحقاً لتدمير شبه كامل من قبل الجيش السوري، ما اضطر العائلة للتوجه إلى لبنان. رفض محمد في البداية أن يسجل نفسه لاجئاً، إذ كان على يقين من أنه سيعود قريباً إلى منزله، إلى أن اتصل به أحد الأقرباء وأخبره بأن منزله دُمّر بالكامل، وكذلك مشغله. فسجل نفسه وعائلته لاجئين سوريين في لبنان.

المخيّمات

صادفت ثلاث صور لأحد المخيّمات، ثلاثة أطفال بأعمار متفاوتة، يحضن كل منهم الآخر، يحدّقون جميعهم في الكاميرا. الطفلة في الوسط تنظر بغضب، بغضب شديد. خلفهم يظهر جزء من الخيمة وطرف برميل. الصورة الثانية لرجل عجوز ينظر إلى العدسة بقسوة وحزن، وكأنه يحكي القصة كلها، وإلى جانبه فتاة صغيرة تسند جسدها عليه وتدير وجهها بعيداً.. بعيداً جداً..

أما الصورة الثالثة، ففيها نهر من الخيّم المتراصة، تسند أعمدتها بعضها البعض، تربطها جميعاً حبال كثيرة، وثياب تحضن واحدتها الأخرى.

توقفت للحظة وأنا أقلّب الصور الثلاث. اللون، هو الفارق الوحيد الذي

فصل بين الماضي والحاضر، بين مخيّمات 1948 ومخيّمات اليوم. ثلاث صور بالأبيض والأسود، ثلاث صور بالألوان، الأزرق والأبيض والقليل من الأحمر والبني والأخضر. واقعان مستمران، نكبتان مستمرتان، إحداهما بلغ عمرها 65 عاماً، والأخرى ثلاثة أعوام.

أخرجت النكبة الفلسطينية أكثر من 800 ألف لاجئ فلسطيني من أرضهم، بحسب تقرير للأونروا في 1948، بعد صدور القرار 194 الخاص بالعودة، وأصبح عددهم اليوم 4 ملايين تقريباً، بينما سجلت الأمم المتحدة 9.3 ملايين لاجئ سوري تقريباً حتى الآن..

2014-1948

وصل جدّاي وابنهما إلى جنوب لبنان، واستقروا في منزل عائلة جدتي اللبنانية الأصل، «وقتا إللي بيعرف عالم قعد عندن أو قرايب، والباقي توزع على المخيّمات والشوارع، كنا مفكرين إنو هي فترة مؤقتة»، أخبرني جدي ذات يوم.. لم يكن هناك وقت كاف لأعرف جدي أكثر، أو أعرف تفاصيل لجوئه. جدي الذي لم يخلع كوفيته يوماً.

تصاعدت حدة القتال في فلسطين بعد قرار التقسيم، وذلك في بداية 1948. مع انتهاء الانتداب البريطاني وإعلان دولة إسرائيل واعتباره ساري المفعول، بدأت الحرب بين الكيان الصهيوني الجديد والدول العربية المجاورة والمجموعات الفلسطينية، وانتهت باحتلال إسرائيل 78% من الأراضي الفلسطينية، قامت خلالها بارتكاب مجازر عديدة، أشهرها مجزرة دير ياسين غرب القدس، التي قتلت إسرائيل فيها أكثر من 360 مدنياً من أطفال ونساء ورجال وعجزة.

لاحقاً، ذهب جدي وجدتي وأولادهما الأربعة إلى إدلب، حيث أخبروا جدي عن فرص عمل في سورية. سراقب البلدة التي ذهبوا إليها، كان الجامع منزلهم الجديد فيها، ومن ثم انتقلوا إلى بيت من الطين. البرد

وقسوة الحياة في ذلك الوقت، أدّيا إلى وفاة طفلين من أشقاء والدي الذي أنجبته جدتي هناك، ومن ثم توجها إلى دمشق وبقيا فيها..

ارتكب النظام السوري حتى اللحظة مجازر كثيرة بحق المدنيين خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة، استخدم فيها كل أنواع الأسلحة، ونفّذ مجزرته بكل وحشية. في داريا نفّذ مجزرة راح ضحيتها 600 مدني أعدموا ميدانياً. وفي الغوطة 1500 مدني قُتلوا بالأسلحة الكيماوية، إضافة إلى مجازر كثيرة أخرى.

عن العودة

كنت قد بلغت 14 من عمري، عندما أثار فضولي سبب احتفاظ عائلتي بالمفتاح المعلّق في إحدى غرف منزلنا، أمسكت بالمفتاح وتوجهت إلى والدتي، لم أكن أفهم تعلُّق عائلتي بهذا المفتاح بعد كل هذه السنوات، وعرفت لاحقاً أن كثيراً من الفلسطينيين يحملون مفاتيح منازلهم أو نسخاً عنها من فلسطين. إرث عائلي يتم تناقله منذ ذلك الوقت. «إذا مارجعنا نحن بترجعوا انتو، هيّ بلدكن يا بنتي»، أثار هذا الجواب استغرابي، فأكملت حديثها: «بس تكبري بتعرفي شو قصدي».

لم تكن تعلم والدتي آنذاك أنني سأختبر التجربة نفسها في وقت قريب، التمسك بفكرة «حق العودة». كما لم تتوقع أن تكون إلى دمشق، لم يفهم والداي تعلقي الشديد بالعودة إلى سورية، لكنني اليوم أصبحت أفهم تعلقهما ذاك جيداً..

انتقل أحمد للعيش في لبنان بعد تجربة اعتقال في فروع الأمن السورية العام الماضي. خرجت عائلة أحمد من الجولان أثناء الاجتياح الإسرائيلي لها. توجهوا إلى الشام واستقروا هناك. ولدوافع العمل، سافر والده إلى بلدان عدة كان آخرها الكويت. ولد أحمد في دمشق، والتحق هو وأسرته بوالده بعد أعوام، وذهب بعد ذلك إلى الأردن، ومن ثَمّ إلى دمشق.

«إسرائيل والنظام السوري بالنسبة إلي واحد، سقوط النظام هو بداية لتحرير الجولان».

يكمل أحمد: «أنا بدي إرجع على الشام، بعرف أصلي من الجولان بس تعصّبي لدمشق، طفولتي، مراهقتي، دراستي وحياتي فيها، البلد مو رقم خانة ولا هوية بتسجل انتمائي وين، الجولان مابعرفا ولا بحياتي شفتا، بس إذا بقدر ساعد إنو ترجع بساعد، بتعنيلي متل أيّا سوري، بس الشام قطعة مني وأكتر من هيك».

رُحّل هاني عباس من مخيّم اليرموك العام الماضي إلى سويسرا. لجأ جد هاني من بلدة صفورية في قضاء الناصرة إلى دمشق في النكبة، وانتقل إلى اليرموك بعد تأسيسه، هناك عاش جد هاني حياته وكذلك والده، وأيضاً هاني قال: «برجع على فلسطين، مش على الشام، أنا حدا تغرب وتشرد وعرف شو يعني كلمة إنك ببلدك وابن بلد وإنك على أرضك، مهما كانت الأمور قاسية بيكفي هالكلمة، أنا حدا تعب من كلمة لاجئ وتوابعها».

حسان حسان، لاجئ فلسطيني سوري، قُتل تحت التعذيب في فرع فلسطين في دمشق 2013.

جهاد عبد الرحمن الطويل، فلسطيني من القدس، قُتل تحت التعذيب في السجون الإسرائيلية 2014.

فادي مراد، سوري، قُتل تحت التعذيب في سجون النظام السوري 2014.

يد نحيلة جافة للغاية، تحمل وتداً، ترفعه ببطء شديد، عروق اليد بارزة وكأنك ترى مجرى الدم فيها، تهوي اليد ويُغرس الوتد في الأرض، يكرر المشهد ذاته، اليد تهوي ويُغرس الوتد مجدداً، ترفع اليد، تهوي اليد، يُغرس الوتد...

على الحدود السورية ـ اللبنانية: توقّفْ ممنوع الدخول

2014/5/21

تعميم رقم 1 ـ لبنان ـ الأمن العام

«تعميم إلى جميع شركات الطيران ـ الموضوع: عدم السماح بنقل أي مسافر فلسطيني لاجئ في سورية ـ يُطلب إليكم عدم نقل أي مسافر فلسطيني لاجئ في سورية إلى لبنان، مهما كانت الأسباب، وأياً تكن المستندات والوثائق الثبوتية التي يحملها، تحت طائلة تغريم الشركات الناقلة في حال المخالفة وإعادته من حيث أتى».

دمشق ـ يلدا

أصابع قدم صغيرة تتشبث بـ«شحاطة» تلامس «كرة» ملوّنة وتلقي بها باتجاه الحائط. يُسمع صوت قصف من بعيد، يلتفت الطفل نحو نافذة منزله، يرى والدته وهي تُعدّ طعام الغداء. صوت آخر مختلف قليلاً عن الذي سبقه، لكنه صوت قذيفة بالتأكيد، يبقى محدّقاً في النافذة يتابع خيال والدته المرتمي على زجاج النافذة، «أسامة، يالله أمسك الطابة»، يدير وجهه نحو أخته الصغيرة التي تحمل الطابة وتركض باتجاهه مبتسمة، صوت قذيفة قريبة جداً، تقع الكرة على الأرض وتتدحرج، يتابعها بعينيه، يشد بأصابعه الصغيرة على أنف أخته ممازحاً إياها، يمسك يدها ويهرعان إلى المنزل.

عاجل ـ اقتحم النظام السوري بلدة يلدا بريف دمشق بالدبابات والمدرّعات، بعدما قام بقصف الأحياء السكنية فيها.

بيروت ـ عين الحلوة

فُتح الباب، جُرّت الحقائب والأكياس، اللاجئة نفسها، إلى إحدى الزوايا. نظروا حولهم، منزل آخر في مدينة أخرى، وبلد آخر، تشدّ مي طرف كنزة أمها، «وين بدنا ننام؟»، تنظر الأم حولها، تتنهد. ودون أن تنظر إلى ابنتها: «هلق بنشوف يا بنتي». تحوم هي وزوجها في أرجاء المنزل القديم الصغير جداً، يفتحون النوافذ لتخرج رائحة العفن من المنزل، 4 ملاعق، 4 شوك، صحون، ثياب قليلة، سكين، دمية فتاة مُخاطة خياطة رديئة. تخلع الأم حجابها وتضعه جانباً، تدخل إلى المطبخ، تخرج طنجرة يكسوها الصدأ على طرف المجلى، يجرّ زوجها الحقائب الفارغة ويلقي بها خارج المنزل.

دمشق

«خسر زوجي شغلو بالمعمل، والأولاد راحت عليهن المدرسة»، عادت أم أسامة إلى دمشق قبل 3 أسابيع لإحضار بعض الأوراق من هناك، «وصلت إلى دمشق، وصدر قرار من الأمن العام اللبناني بمنعنا من العودة، حاولت المستحيل لنرجع بس ما في أمل. عم يقولوا ممنوع دخول فلسطيني سوري على لبنان».

المصنع ـ بيروت

يحكّ ذقنه، يفتح عينيه بجهد كبير، جفناه منتفخان. أمال رأسه قليلاً نحو اليمين ليشتمَّ نفسه، يبعد أنفه فوراً عن جسده. يسحب الحقيبة من تحت رجليه، يخرج منها فرشاة يمشط بها شعره، يخرج مزيل العرق ويرطب به تحت إبطيه، ينفض الغبار عن قميصه، ويقف، يتجه مجدداً نحو

رجال الأمن اللبنانيين: «صباح الخير معلم»، ومن دون أن ينظر إليه رجل الأمن من خلف الزجاج: «ممنوع تفوت على لبنان، فلسطيني سوري ممنوع يفوت. خبرتك هالشي من مبارح»، يلصق وجهه بالزجاج، ويتحدث بصوت متوتر: «صرلي يومين نايم على الرصيف، عيلتي كلها بلبنان وبيتي تدمّر ما في مكان روح عليه بالشام، وين بدي روح، عم قلك عيلتي كلها بلبنان». يضع كفيه على الزجاج ويشد بقوة، ينظر إلى رجل الأمن الذي تجاهله تماماً، سحب كفّيه عن الزجاج الذي تعرق من شدة ضغطهما، جرّ حقيبته وعاد إلى المجهول.

دمشق

«معي أوراق تسجيل الأولاد في المدرسة، وعقد أجار البيت، وعلى حدود سورية ما كان في مشكلة»، تؤكد أم أسامة، «المشكلة كانت على حدود المصنع، يا بنتي نحن قاعدين هلق ببيت أختي هون بالشام عشرين شخص ببيت صغير، وضعنا كتير صعب، فكري نروح على لبنان، هون ما عنّا شي، وأنا عيلتي الكبيرة من فلسطينية لبنان يعني على الأقل هونيك إلنا حدا».

المصنع ـ بيروت ـ 2014/5/17 ـ الرابطة الفلسطينية

طابور طويل من النساء والأطفال ومتاعهم. تدخل هي وابنها ذو الـ13 عاماً، تقف في الدور المتزاحم، تمتمات وغضب، وجوه متجهمة وحزينة، صراخ يعلو من المرأة التي أمامها: «أهلي جوّا مش منطقي ما تخلوني فوت»، تقترب أكثر، تمد يدها المرتجفة، يمسكها، ينظر إليها، «مدام ممنوع تفوتي على لبنان»، تجيبه بتأتأة واضحة جداً: «أنا مقدمة على فيزا لمّ شمل، زوجي في لبنان»، أخذت نفساً عميقاً كي تكمل حديثها، في محاولة لأن تتمالك نفسها وتأتأتها المفاجئة.

وقبل أن تكمل ألقى بجواز سفرها من النافذة الصغيرة: «إذا رح تضلي

تتأتئي ماعاد إلك فوتة على لبنان بحياتك. فهمانة، ارجعي على الشام»، حملت أوراقها، نادت ابنها، نظرت إلى موظف الأونروا الواقف هناك والذي قال على الفور: «ارجعوا إلى سورية وانتظروا قرارات جديدة بخصوصكم، ممكن بعد أسبوع، عشر أيام، شهر، شهرين... آسف كتير».

تعميم رقم 2 ـ لبنان ـ الأمن العام

الموضوع: الفلسطيني اللاجئ في سورية الذي يحق له الدخول إلى لبنان ـ يطلب من جميع شركات الطيران التقيد بما يأتي:

السماح بنقل اللاجئ الفلسطيني في سورية الذي يحمل: بطاقة إقامة سنوية لبنانية (سنة واحدة، 3 سنوات مجاناً)، سمة خروج مع عودة عدة سفرات غير منتهية الصلاحية. منح الفلسطيني اللاجئ في سورية سمة مرور لمدة 24 ساعة بحال: كان قد غادر سابقاً عبر مطار رفيق الحريري الدولي، ولديه إقامة صالحة في الخارج ويرغب بالعودة إلى سورية عن طريق لبنان.

الداخلية اللبنانية توضح

علّق مستشار وزير الداخلية خليل جبارة لموقع NOW حول قرار عمّمه الأمن العام في ما يتعلق باللاجئ الفلسطيني السوري بالقول: «لقد تم إصدار تعميم بمنع اللاجئ الفلسطيني في سورية من الدخول إلى لبنان، ومن ثم قامت وزارة الداخلية بالتعاون مع الأمن العام بإصدار تعميم آخر يسمح بدخول الفلسطيني في سورية ضمن بنود وآلية محددة».

ويكمل جبارة: «تقوم وزارة الداخلية اليوم مع الأونروا بإعادة النظر بهذه الآلية واتخاذ الإجراءات اللازمة ضمن النتائج التي ستصدر ضمن إطار نقاش اللجنة الوزارية المعنية بشؤون النازحين السوريين والفلسطينيين».

وأضاف: «نحن ندعو أصحاب الشكاوي بالتوجه إلى الأونروا والإبلاغ عن مشاكلهم، ونحن سنقوم بمعالجتها لأننا في تنسيق مستمر مع الأونروا».

دمشق

«رحت على عين كرش بالشام لطالع أوراق التصريح لهم، قالولي لازم تجيبي موافقة من الأمن العام اللبناني»، أم مجد، سورية يحمل أولادها وثيقة سفر لاجئ فلسطيني سوري. أعمارهم 2 و4 و6 سنوات، تقول: «السفارة اللبنانية قالولي ما دخلنا، بعتت حدا من الأقرباء على الأمن العام في لبنان، وبعد مفاوضات طويلة، طلبوا على كل ولد 550 $ رشوة، اللي عرفتو إنو لازم ندفع على الولد 100 $ بس هني بدهن أكتر لجيبتهن».

الأمن العام اللبناني

حاول NOW الاتصال بالأمن العام مرات عدّة للحصول على أجوبة أو توضيح في ما يتعلق بالتعميم والمعاملة على الحدود وصحة خبر الرشوة، لكننا لم نلقَ منهم جواباً.

دمشق

«كان موعدنا التلاتا 6 أيار، وصلت على المصنع، قالوا طالع قرار تعميمي بمنع دخول الفلسطيني السوري إلى لبنان، لو بتشوفي كيف المعاملة هونيك، 4 ساعات عالحدود بدون أيا نتيجة»، فدوى الفتاة العشرينية كانت في لقاء مع زوجها الذي يسكن في أميركا وذلك لإجراء الأوراق في السفارة الأميركية لتنضم إليه بعد غياب عام ونصف: «جرّبت كل شي.. السفارة اللبنانية بسورية، المصنع كل شي.. ما في نتيجة، ما بتعرفي أديش مجروحة ومزعوجة، يعني معقول كل واحد يضل منا ببلد، ما بدي إبقى بلبنان بدي روح قدّم أوراقي بالسفارة وإرجع لتطلع النتيجة هاد كل شي».

أم أمجد، أم أحمد، مجد، أسامة، مي، أسماء وهمية لأشخاص حقيقيين وأحداث حقيقية، حدثت وما زالت تحدث على الحدود بين سورية ولبنان ـ المصنع.

سورية وحيدة في فم الوحش

2014/5/28

الساعة التاسعة صباحاً، العاصمة دمشق: الشوارع شبه خالية، صمت خفي يحوم حول الأبنية السكنية. دقّات قلوب القاطنين هناك وحدها تتماشى مع ضربات الهاون وأصوات القصف. الترسانات والحواجز، وجه الأسد في كل مكان، والنعوات كذلك.

«النجمتين عالعلم بتحسّيهن عم يلاحقوكي وين ما رحتي.. أنا شخصياً بحسّن عيون حدا عم يعاتب.. أعلام منكّسة ـ برغم إنو العلَم من زمان ما عاد بيمثلني ـ بس هيك بحسّ.. علم منكّس وعيون عم تلاحقنا وتعاتبنا.. أحمر للدم، وأبيض للكفن، وأسود للحَداد، كل الطريق وكل الوقت»، روت إحدى القاطنات في دمشق.

الانتخابات

أعلن رئيس مجلس الشعب السوري، محمد جهاد اللحام، موعد الانتخابات الرئاسية في الثالث من حزيران/ يونيو.

العاصمة دمشق

تطوي القطعة تلو الأخرى، وتتمتم: «هاد الأزرق بيلبقلك يا ابني، اللّه يحميك!». تحمل قلماً وتكتب على ورقة علّقتها بجانب صورة شاب يبدو أنه ما تجاوز 15 عاماً، «صاروا 600 يوم يا هاني، كل يوم بقول رح تطلع بكرا».

«الله سورية وبشار وبسّ، الشعب السوري انتصر، بحكمة قائدنا والجيش». يقترب الصوت أكثر فأكثر، يعلو شيئاً فشيئاً، تهرع مسرعةً إلى باب المنزل، تغلقه جيداً، القفل الأول، القفل الثاني، القفل الثالث... تذهب إلى الغرفة الأخرى تمد رأسها من خلف الباب، تحدّق بابنتها النائمة، تغلق عليها بالمفتاح، تعود إلى الغرفة الأخرى، تحمل الصورة وتجلس. يبتعد الصوت، الزمامير كذلك. «طلبنا على الموت نلبيك»..

2011

تظاهرات سلمية في أرجاء البلاد ردّاً على اعتقالات وقتل النظام للمدنيين في سورية. إلغاء قانون الطوارئ الذي تبعه حملات همجية للنظام، منها مجزرة الجامع العمري في درعا.

استمرت التظاهرات السلمية، فوقعت مجزرة أطفال الحرية في حماة. تشكّل الجيش الحر، عُلّقت عضوية سورية في الجامعة العربية. حوصرت حمص. تشكّل المجلس الوطني السوري. حملات السبيكرات، إضراب الكرامة. زيارة بعثة المراقبين الدوليين إلى حمص، اجتياح بابا عمرو بعد قصفه.

«لو سقط النظام بالسنة الأولى، كان حيصير قليل من الفوضى وخاصة ببعض المناطق المحتقنة طائفياً، كان ممكن الحفاظ على مؤسسة الجيش والشرطة لضبط الوضع، وكانت صارت انتخابات سياسية»، يقول يامن حسين، صحافي سوري.

بخطوات ثابتة يتقدّم المتظاهرون حاملين الأزهار باتجاه رجال وعناصر الجيش والأمن المدججين بأسلحتهم، الأعين تحدّق بالأعين، «إيد وحدة إيد وحدة»، يهتف المتظاهرون، يمدون الزهور نحو الجيش الذي مدّ يده باتجاههم أيضاً. يقع الصف الأول من المتظاهرين على الأرض، كذلك الزهور التي غرقت في دمائهم.

«لو سقط النظام بأول سنة ثورة، عملية انتقالية تستند إلى مجلس تأسيسي يُحضّر لانتخابات تشريعية ورئاسية، إضافة إلى هيئة قضائية وطنية لمراجعة الانتهاكات والمحاسبة عليها، مع إطلاق عملية إصلاحية جذرية في تركيبة الأجهزة الأمنية والقوات المسلحة، تعتمد على عقيدة وطنية وليست أيديولوجية. وتقوم هيئة منتخبة بوضع قواعد إطلاق المسار الدستوري الجديد بعد انتهاء العملية الانتخابية». سلام كواكبي، باحث في الشؤون السياسية.

2012

بدأت الدول الغربية والعربية تغلق سفاراتها في سورية. الفيتو الأول استخدمته روسيا والصين ضد قرار مجلس الأمن. انسحاب بعثة الأمم المتحدة من حمص. السعودية تؤكد على فكرة تسليح المعارضة. سقوط بابا عمرو بعد تدميره بالكامل. بدء معركة حلب، وانفجار خلية الأزمة. تزايد الانشقاقات من ضباط وعسكر وسفراء وشخصيات سياسية. تشكيل المجلس الوطني. مجزرة داريا الكبرى والحولة. تشكّل الائتلاف الوطني السوري. ظهور جبهة النصرة وتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام. جنيف 1.

«لو سقط النظام في السنة الثانية للثورة، كنا اليوم نخوض ثورتنا الثانية ضد فوضى السلاح، لكن بالتأكيد لم نكن خسرنا الدولة، ولكان من الممكن البدء بتكوين دولة المؤسسات والتكنوقراط بعد حين، ولكن لا بدّ لنا من أن نمرّ بفترة فوضى. وكان من السهل العمل على السلم الأهلي والحفاظ على مكونات الشعب السوري. ولكنا ارتحنا من كابوس داعش السرطان العضال الذي لا يقل خطورة عن النظام». علي دياب، صحافي.

«لو سقط النظام في السنة الثانية. الشرخ كان سيكون أعمق، وكانت ظاهرة «أمراء الحرب» ستكون واقعاً. مع ذلك، ومع غياب سيطرة كبيرة

للجماعات الجهادية، كان بالإمكان استيعاب ظاهرة فوضى السلاح. سياسياً، الأمور صعبة. النظام خسر كل واجهاته «السياسية» وأصبح مكوّناً ميليشياوياً مكشوفاً، وبالتالي يصعب البناء فوق الموجود. مع ذلك، ما زال هناك، على الأقل، قطب معارض متمايز إلى حد كبير»، ياسين سويحة، مدون سوري.

العاصمة

«وجهه أينما التفتَّ، غاضباً، مبتسماً، ضاحكاً، مكشراً عن أنيابه، بلباس مدني، بلباس عسكري». الشمس حادة اليوم، العرق يأخذ أشكالاً مختلفة على جبينه، يتجول الشاب في أحياء المدينة، عليه الآن قطع تجمع للانتخابات، (يبكّل) زر قميصه الأسود. الأسود لأنه لم يرتدِ لوناً آخر منذ مقتل أخته ووالدته في حمص إثر قصف منزلهم هناك. بدت المسافة لتجاوز هذا التجمع طويلة جداً.

يرقصون على ألحان عرائسية ولطميات، «كايدهم، بالضحكة الحلوة مجنّنهم، نظرة عينك ترعبهم، قالوا ارحل على بكّير نسيو إنو الأسد كبير». اتّجه نحوهم، حدّق في وجوههم، وقبل أن يكمل طريقه أمسكه أحد المتواجدين، رجلٌ في الـ30 من العمر حليق الرأس، ذو ذقن كثيفة، يرتدي كنزة سوداء وبنطلوناً عسكرياً، «الروسية» على كتفه، وأعطاه صورة لبشار الأسد ليرفعها؛ توقف الوقت واختفى الصوت، تسارعت الصور إلى رأسه، 6 أشهر تحت التعذيب في فرع الجويّة، حمل الصورة، رفعها، وأغمض عينيه.

«لو سقط النظام في السنة الثالثة لكانت الثورة السورية ثورة إقليمية وليست محلية فقط، كان ممكناً أن تسقط رؤوس رجالات دول، لذلك كان من الصعب على أي طرف دولي اتخاذ أي قرار حاسم في ما يخص الوضع السوري»، عماد حورية، ناقد مسرحي وناشر.

2013

تحرر العديد من المدن السورية على يد «الحرّ». انسحب النظام السوري من دون قتال، وسلّم الرقة لـ «تنظيم دولة الإسلام في العراق والشام» و«جبهة النصرة». سقطت القصير بيد النظام وحزب الله. مجزرة الكيماوي في الغوطة بريف دمشق. الرئيس الأميركي طالب برد عسكري على النظام إثر استخدامه السلاح الكيماوي. ثم تراجع عن قرار الضربة العسكرية بعد تعهّد بتسليم النظام لأسلحته الكيماوية. بشار الأسد في مقابلة تلفزيونية يؤكد أن لا شيء يمنع ترشحه للانتخابات العام القادم. تصفية كتائب ومقاتلين وقادة من الجيش الحر على يد النظام وداعش وجبهة النصرة. الإعلان عن توحد سبع جماعات إسلامية تحت لواء واحد. اختطاف أعضاء مركز انتهاكات حقوق الإنسان في سورية. أميركا وبريطانيا تعلّقان مساعداتهما للمعارضة المسلّحة. حصار مخيّم اليرموك. الإعلان عن تنفيذ اتفاق المصالحة في معضمية الشام.

«مسار العدالة الانتقالية سيأخذ وقتاً طويلاً، وستكون الغلبة في الحكم للإسلاميين وجزء من السلفيين، وإعادة الإعمار بحاجة لسنوات طويلة، وسوف ينتشر مبدأ التسامح والمصالحة عوضاً عن المحاسبة والعدالة، أما الآن فإن مسار العدالة الانتقالية سوف يبدأ، ولكن الأوضاع تزداد سوءاً وتتعقد الأمور أكثر، وهذا ما يسعى إليه النظام بإطالة عمر الصراع المسلّح، وستبقى الجماعات السلفية متمركزة في مناطق سورية وستعمل على عدم استقرار البلد». صباح حلاق، ناشطة في حقوق المرأة.

«بتخيّل رح نفوت بحرب أهلية واسعة بحال سقط النظام عسكرياً، بدون مفاوضات بتصيغ حل سياسي واضح»، نضال الدبس، مخرج.

«لو سقط النظام في السنة الثالثة أظن كان من المرجح أن تستمر الحرب حتى الآن، مع محاولات للسيطرة على الوضع، وإن كانت التدخلات الدولية في الوضع الداخلي ستكون أكثر فجاجة، وسيطرة للقاعدة في بعض

المناطق مع تفجيرات مستمرة. من ناحية السلم الأهلي سيكون الوضع صراعات أهلية غير معلنة، ولكنها واضحة في كثير من المدن والمناطق، مع تهميش لفقراء الفلول أو موالي النظام، ومع بقاء النافذين الكبار بأشكال غير معلنة ولكن تنتظر لحظة انقضاض جديدة على مفاصل البلد». خولة دنيا، كاتبة.

2014

معارك بين داعش والنصرة والحر. دخول اتفاق الهدنة في اليرموك حيز التنفيذ، ثم انهياره. جنيف 2 من دون الوصول إلى أية نتائج. مجزرة الغوطة الثانية بحق النازحين. اكتشاف مقابر جماعية بعد تحرير «الحر» لمناطق كانت تخضع لسيطرة داعش. عملية تبادل إفراج الراهبات. سيطرة النظام على حمص القديمة.

دمشق

تخرج من عملها، الساعة تقارب الـ 4 بعد الظهر، تمشي بخطوات هادئة، تنظر حولها، أعلام، صور لبشار الأسد كتب عليها «نعم للأسد، نعم لسورية الأمان»، وأخرى «شهيد ورا شهيد غير الأسد ما نريد»، تلامس قدماها الرصيف، تتوقف لتقطع الشارع، إشارة المرور (اللون الأحمر)، 6 سيارات مغطاة بأعلام النظام، وبوجه الأسد. راكبو السيارات يُخرجون رؤوسهم من الشباك، يغنون: «يا بشار متلك مين، أنت يا عالي الجبين، نحن جنودك ملايين»، تضغط على كفها بكفها الأخرى، ترخيهما جانباً، الإشارة خضراء، تدخل المقهى.

مجانين في عصر الخلافة

2014/7/1

جثث متراصّة محاطة بدمار هائل، العدسة تقترب أكثر، الوجوه زرقاء، أعين مفتوحة تنظر إلى الفراغ، المكان ليس بالبعيد أبداً. هناك من شاهد الجثث تلك مباشرةً، صورة أخرى قريبة جداً على الأجساد الممزقة والدماء.

الأشخاص الذين شاهدوا وعاشوا هذا الحدث بشكل مباشر أو غير مباشر تعرضوا لصدمة حادة، لكن حالة الصدمة تلك تتلاشى، فمدتها الزمنية قصيرة، يبتلعها الإنسان في محاولة لإكمال حياته، لكن تداعيات هذه الصدمة تبدأ بالامتداد داخل الجسد كله نفسياً ومادياً، وتختلف آثارها من شخص إلى آخر، إنما يمكننا القول إنها في حالة كهذه تُعتبر صدمة جماعية، أي إن آثارها والاضطرابات التي تنشأ عنها جماعية إلى حد ما.

استمرار الأحداث العنيفة والدموية في سورية، جعلت من الصدمة وتداعياتها أمراً غير قابل للعلاج، إذ إن الانسان كبت الاضطرابات الناتجة عنها، بسبب تعرضه لصدمة تلو الصدمة خلال فترات زمنية قصيرة.

تداعي الجسد

عندما يستنفر العقل بحالته الدفاعية القصوى، يقمع الذاكرة المتعلقة بالصدمة، ما يؤدي إلى أن تظهر أعراضها جسدياً ونفسياً، مثل الاكتئاب

وفقدان الشهية والتوتر وآلام في المعدة، كما يفقد جزءاً من الذاكرة أيضاً. يحدث هذا عادةً في حالة تعرض الإنسان للصدمة الواحدة، إذاً، ماذا يحدث في حالات الصدمات المتكررة؟

الحياة اليومية

الساعة 6 صباحاً، الغرفة مظلمة، يرنّ المنبّه، لا أحد يحاول إسكاته، تفتح عينيها، تنظر إلى السقف، نصف ساعة لا تحرك فرح ساكناً، ما زالت تحدّق في السقف، تلقي برجليها على الأرض، ثم جسدها، تقف وتتجه نحو الحمّام، ترتدي ملابسها وتخرج إلى العمل.

«بحس إني بجرّ حالي جرّ من التخت، بس ما عندي حل، بدي إشتغل»، فرح البالغة من العمر 20 عاماً انتقلت إلى بيروت منذ عام تقريباً، اعتقلت في دمشق لمدة شهر ونصف، وتعرضت كغيرها من السوريين لكل الصدمات المتتالية، «بحاول دايماً إنو كفّي النهار، عندي مشاكل بالذاكرة من 3 سنين، وبلش يصير عندي مشاكل بالتواصل، وما بحسّ بالسعادة شو ما صار معي».

وتضيف: «مابعرف شو عم حسّ، بالفراغ يمكن، بنفعل لمدة دقيقة، بتوتّر لمدة دقيقة، بحسّ بالهدوء لمدة دقيقة، وبنام 20 ساعة، بس بتخيّل إني منيحة».

القصير ـ أبو صقار

نُشر فيديو لرجل يسمّي نفسه «أبو صقار» أثناء معركة القصير، وهو يحمل قلب أحد عناصر النظام أثناء اقتحام الأخير المدينة. الرجل وضع القلب ملاصقاً لفمه. لم يظهر في الفيديو أن الرجل يأكل القلب.

ردود الفعل على هذه الحادثة كانت مضطربة للغاية. الصدمة هي

الحدث نفسه، أما تداعياته واضطراباته في ردود الفعل عليه، وتناقضاتها من الأشخاص أنفسهم في تعبيرهم عمّا قام به أبو صقار.

«الزلمة ما أكل القلب»، «هذا الرجل وحش، أكل القلب، أنا شفتو»، «كيف قدر يحطو بتمّو؟»، «هاد مجرم»، «شو متوقعين من حدا عيلتو انقتلت قدّامه؟»، «أنا بقدر إفهم إنو الانسان يعصّب ويحقد واللي عملو أبو صقار طبيعي بحالتو»، «ما في أيا شي بيخلي إنسان يعمل اللي عملو أبو صقار»...

رزان زيتونة ـ الخدر

قتل النظام السوري آلاف المدنيين في يوم واحد باستخدامه السلاح الكيماوي في الغوطة الشرقية. الجميع في حالة صدمة، صور المجزرة تنتشر في كل مكان.

من شهد المجزرة في الغوطة، كان عليه أن يقوم بفعل فوري يعادل الحدث زمنياً، أي أنه أجّل شعوره بالصدمة المباشرة، إذ كان عليه أن يحمل الجثث ويدفنها ويوثّق الموتى، وأن ينقذ من يستطيع إنقاذه.

«أحاول استرجاع تفاصيل ذلك اليوم ببطء شديد علّي أنفجر بالصراخ والنواح كما يفترض بشخص «طبيعي» أن يفعل. يرعبني الخدر الذي أحسه في صدري والضباب الذي يلف الصور المتلاحقة في ذهني. ليس هكذا تكون ردة الفعل بعد نهار حافل بالتعثر بالأجساد التي صُفّت إلى جانب بعضها البعض في الردهات الطويلة المعتمة. لُفّت بالأكفان البيضاء أو البطانيات القديمة، لا يظهر منها إلا وجوه مزرقّة ورغوة جمدت على زوايا الأفواه، وأحياناً خيط من الدماء يختلط بالزبد. على الجبين أو على الكفن، كُتب رقم، أو اسم، أو كلمة «مجهول»»، كتبت رزان زيتونة.

إذا كان صحيحاً ما شعرت به رزان، «الخدر» أثناء استرجاعها تفاصيل المجزرة، لماذا أنهت مقالتها بهذه الجملة: «العالم قذر ومتوحش. ستفهم يوماً حين تكبر، إذا أتيح لك أن تكبر! تصبح على وطن يا بني»؟

قطع الرأس

في تلك الأثناء التي ما زال يحاول الإنسان التعامل مع صدمة الكيماوي وتداعياتها واضطراباته إلى جانب كل الصدمات الأخرى، نشر الإعلام صورة لرجل «داعشي» أثناء قطعه رأس أحد المدنيين في إحدى مناطق الشمال السوري. صدمة جديدة..

نحو الجنون

هل يمكننا القول إن الصدمة الجديدة، والصدمات القديمة، وتداعياتها واضطراباتها، وما تقوم به وسائل الإعلام من الضخ المستمر لرفع مستوى الاضطرابات عند المتلقي، واستمرار العنف والتفجيرات والاعتقالات والحركة السريعة للأحداث الأليمة من جهة، وعدم توقف الحياة من جهة أخرى، فلا خيار إلا أن تكمل يومك وتنتقل لليوم الذي بعده، قد تقودنا إلى الجنون؟!

الخلافة وعصر الجنون

نشر تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام «داعش»، الأحد، كلمة جديدة للناطق الرسمي باسم التنظيم أبو محمد العدناني الشامي.

وأعلن العدناني بشكل رسمي قيام الخلافة الإسلامية وتنصيب خليفة للمسلمين ومبايعة عبد الله إبراهيم «أبوبكر البغدادي» الذي قَبِل البيعة.

تعامل الناس مع إعلان الخلافة الإسلامية من قبل التنظيم كان هيستيرياً، إذ ملأت التعليقات الساخرة من موضوع الخلافة صفحات التواصل الاجتماعي، وفي تعليقات الأشخاص أثناء اللقاء وفي العمل..

«يبدو نحن جنّينا، اللي عم يصير شي ما فينا نستوعبو، كل شي صار خلال هالتلات سنين، قتل ودمار، وتشرد ونزوح ولجوء، والنصرة وداعش،

والخلافة الإسلامية هلق، هاد المضحك المبكي». يقول فؤاد. ويكمل: «بنبكي، بنكتئب، بنضحك، بنعصب، كلو بنفس الوقت، أكيد جنّينا».

«لقد اكتشف العقل الجنون باعتباره إحدى أدواته الخاصة، وهي طريقة أخرى لاستبعاد كل ما يمكن أن يشكّل سلطة خارجية أو عداء لا حدّ له»، ميشيل فوكو.

شاركتُ الجميع التعليق بشكل ساخر على إعلان الخلافة الإسلامية بشكل هيستيري على «الفيس بوك»، لكني توقفت بعد نصف ساعة، وكأن أحدهم قام بضربي على وجهي، هذا الإعلان ليس نكتة، الخبر يقول «خلافة إسلامية في 2014». الخلافة حقاً قامت. بعد دقائق عدت إلى حالة الجنون تلك مع الحشود...

إذا قلنا إننا نتعرض لصدمات كهربائية مستمرة داخل مشفى المجانين، بهذه الحالة النظام وداعش وتوابعهما، هم المشرفون على المشفى الذي نعيش فيه. ونحن اليوم مجانين في عصر الخلافة.

حين رفع المحقق عصابة العينين

2014/7/8

داخل الفرع الأمني، أجلس معصوبة العينين، مكبّلة اليدين. هناك شخص آخر يدور حولي، يستجوبني بشكل مستمر، صوته غليظ، يوجّه الاتهامات، ويضرب رأسي ووجهي بين الحين والآخر. أظن أنه رجل طويل، نحيل للغاية، يرتدي بنطالاً أسود، وقميصاً أبيض مخطّطاً بالأصفر، شعره أسود خفيف، يبدو أنه يضع زيت الزيتون على شعره، إذ أستطيع أن أشمّ الرائحة جيداً. المحقق يتحدّث وأنا أصغي بتمعّن، أحاول أن أحدّد أجوبتي، بينما يشكّل خيالي وجهه.

الخيال والمحقق

وضع المحقق يده على رأسي والأخرى على كتفي، شعرتُ بخاتم غليظ يحفر جمجمتي، أخذ يضغط بشدة، صوته قريب جداً من أذني، عيناي ما زالتا تحاولان أن تبصرا شكل هذا الرجل. يختفي إدراكي للوقت في هذه الوضعية. تهدأ حركة حدقتي، وتغرقان في السواد. شعرتُ أني قفزت إلى الجهة الأخرى، إذ رأيتُ فتاة معصوبة العينين مكبّلة اليدين إلى الخلف، رجل طويل نحيل، شعره خفيف مغطى بالزيت، ويدين غليظتين، يضغط بهما على كتف الفتاة ورأسها، استطعت رؤية أصابعه والخاتم الذهبي العتيق

على يده اليسرى، عيناه البنيتان، وبشرته الحنطية، شارباه الرفيعان، وأنفه الغليظ، وهالة سوداء من حوله.

كف البصر

عندما يتم إجبارك على عدم الرؤية، تشعر باضطراب شديد. الظلام حالك، وأنت في أكثر الأماكن رعباً، تحرّك حدقتيك بتواتر عالٍ، كأنك تحاول أن تخترق قطعة الجلد تلك، وأن تبصر ما يحدث حولك، شكل الغرفة، عناصر الأمن، السجّان، المحقق.

تستنفر أذناك، وكأنها تحاول أن تمتص كل الأصوات حولك، إذ تشكّل عبرهما صورة افتراضية في دماغك، وهي تتحوّل بفعل الظرف إلى صور وحشية، بشعة وقبيحة.

شلّ الحركة

يتم شد اليدين إلى الخلف، وتقييدهما جيداً، في تلك اللحظة، تشعر وكأن يديك ستنفصلان عن جسدك في أي لحظة. أصبحتَ مشلولاً بشكل كلّي، على الرغم من أن الأمر مقتصر على يديك وعينيك فقط.

المحقق

سأفترض أنني أخذت دور المحقق في هذه الحالة. المرحلة الأولى هي أن أجعل سجيني يشعر بالخوف، اللاأمان، الانهيار، التدمير النفسي وإعادة السجين إلى ردة الفعل الطفولية لفكرة العقاب والثواب، بالتالي عليّ أن أجرّده من محيطه، كف البصر.

فحاسة البصر يعتمد عليها الإنسان اعتماداً كبيراً لاستيعاب ما حوله، كما يبني عليها ردات الفعل ومشاعره. إذاً أرفع عتبة المجهول عند السجين،

مع دعم كف البصر، بالظروف المناسبة، الصراخ والتعذيب والتهديد، كما سأجبره على الجلوس على الأرض بوضعية الجنين طوال الوقت.

المعتقل (1) والمحقق

«حطّولي كيس نايلون وربطولي إيدي، أخدوني على مفرزة أمنية بمعرة النعمان بإدلب، وحطوني ببرميل مازوت معبّى نصو، بعدين أخدوني عند المحقق»، يقول محمد. وأضاف: «كنت عم حاول أتخيّل شكلو، رجال قصير وسمين وأصلع وعندو دقن، متل شكل الشبّيح، بس بعدين تعودت عليه، ضربني كتير. بس كمان حكينا كتير، صارت علاقتنا واضحة. وكنت خايف روح لفرع تاني، أول مين واجهت معو مشاعر الخوف والقلق والتوتر».

عمل محمد في شهر آذار 2012، مصوّراً لوكالات عدة من أجل نقل الحراك الشعبي في سورية داخل مناطق الشمال السوري. اعتقلتُه قوات الأمن وسُجِن في مفرزة الأمن العسكري بمعرة النعمان، ثم نُقل إلى فرع الأمن العسكري في إدلب، والشرطة العسكرية في حلب، واللجنة الرباعية في حمص، والشرطة العسكرية في القابون بدمشق، وفرع فلسطين، فرع الدوريات، وسجن حمص المركزي، فترة الاعتقال الكاملة عام ونصف.

المعتقل (2) والمحقق

يمسك عنصر الأمن الحلوى من يده ويلقيها بعيداً. يهجم عليه عناصر الأمن، الذين قاموا على الفور بتقييده ووضع عصابة حول عينيه. يصل رائد إلى فرع «الجوية» شبه مغمى عليه من شدة الضرب الذي تعرض له طوال الطريق.

«شَبَحوه»، كانت هذه المرة الأولى التي يسمع فيها رائد صوت المحقق. اللقاء الأول مع الرجل الذي لازمه طوال 6 أشهر، وبعد دقائق من الضرب

فقد رائد وعيه كلياً، ثم عاد والتقى بـ «صوت» المحقق بعد 3 أسابيع في المنفردة.

«لمّا بلّش يصرخ ويستجوبني، قدرت أتخيّل شكلو من صوتو، ناعم ورفيع، وحسيت إنو عم يحاول يعصّب ويصرخ. يعني عم يعمل المطلوب منو كمحقق بفرع مخابرات، كان طول الوقت عم يأمر العناصر يضربوني، ويعذبوني، وأحياناً كان يضربني هو»، يقول رائد. «أثناء التحقيق كنت أجلس جاثياً أو في وضعية الجنين، وكذلك داخل الزنزانة».

اعتُقِل رائد على الحاجز مرّتين بسبب هويته، المرة الأولى في فرع الخطيب لمدة 9 أشهر، والمرة الثانية في فرع الجوية لمدة 6 أشهر.

حيوان في قفص

لنفترض أن المحقق في الحالات السابقة، أشعَر المعتقلين بأن هناك من جرّدهم من حياتهم الاعتيادية (الحياة الإنسانية)، فمن الممكن أن يكونوا مثل حيوانات تم اصطيادهم من البرية، وضعوا في قفص، يطعمونهم حين يريدون، يضربونهم كي يخضعوا لهم، أي أنهم (مخلوقات تم اصطيادها وسجنها، وتعيش الآن تحت رحمة الصياد).

قد يكون من الممكن إرجاع هذه الفرضية إلى الأسرة، لنأخذ على سبيل المثال: الأب القاسي والطفل. يعنّف الأب ابنه ذا الـ3 سنوات بشكل مستمر نفسياً وجسدياً، لكنه في أحد الأيام يدخل حاملاً هدية صغيرة ويقدّمها لابنه دون أي سبب وهو يبتسم، ماذا يشعر الطفل تجاه والده في هذه اللحظة، وما هي ردة فعله؟ في العادة يبتسم له بالمقابل، يشعر بالقليل من الارتياح مع والده والرضا تجاه نفسه.

المحقق يكشف البصر عني

في التحقيق الأخير، وبعد تكرار الحالات السابقة، يطلب المحقق

من أحد العناصر الموجودين في الغرفة أن يمسح وجهي الملطّخ بمحرمة نظيفة، «شيل عن عيونها»، وكأنه صوت رجل آخر، يرفع العصبة، أفتح عيني نحو الصوت.

ثلاثة رجال خلف المكتب، من في المنتصف هو المحقق، رجل سمين، وجه لطيف، مبتسم، ودون أن أفكر بشيء بادلته الابتسامة بشكل لا إرادي، دون أن يغيّر هذا مشاعري تجاهه، لكن ردة فعلي (أي الابتسامة) أربكتني قليلاً، وشعوري بالاسترخاء بعدها.

«أنت متل بنتي، عندك مستقبل وحياة لا تضيّعيها بهيك قصص، نحن هون كلنا عيلة»، قال المحقق.

كشف البصر عن محمد

«بعد ما حقق معي كذا مرة بشكل عنيف، شال العصابة، قبل ما أستوعب أي شي، جبلي مي وسندويشة بيض، وسألني بلطف إذا كنت منيح، وقتا رجعت بلش حسّ بشوية أمان»، ويكمل: «صار يخبرني عن مرتو وولادو وعن الجار اللي عم يطبّق مرتو، وما في يروح على الضيعة لأنو بالخدمة الإجبارية، وعلمني كيف لف دخان، لأنو الدخان العادي غالي، وضيفني سجاير». وأضاف: «حتى أول ما رفع عن عيوني، ابتسلمي، وانا ابتسمتلو، ما عم افهم ليه».

كشف البصر عن رائد

«بعد كذا تحقيق، أخد كلمة السر تبع الفيس بوك وصار يقلّب بالصور، وبعدين قلي: قرّب وشيل عن عيونك! وصار يسألني عن الصبايا الموجودين، وإنو إذا كنت بعلاقة حب مع حدا منّن، وقت خبّرتو عن صبية كنت حبها، سألني إذا عزمتها على العشا ورقصنا»، ويكمل: «صار بعدين يضيفني

دخان وقلتلو عن علاقات الحب، وكيف كنت عيش، ضيّفني برتقال، ودخان، تغيّر كل شكل التحقيق، كان هالشي كتير غريب، وحسّيت إني ارتحت شوي».

المحقق

آخذ دور المحقق من جديد. عليّ الآن أن أدخل في المرحلة الثانية، وهي أن أعيده بشكل بسيط، إلى ما يشبه الحالة الطبيعية بأدنى درجاتها، سأرفع عصابة العينين وأسحب عنصرين من عناصر دعم كف البصر، الصراخ والتعذيب، وآخذ شكلاً قريباً إلى حد ما من التواصل الإنساني، معه كصديق، كابن، كأخ، وذلك بشكل مفاجئ، وكأني أعطيه قبل أن يموت من العطش القليل من الماء، أو كالطفل الصغير الذي عاقبته بحبسه في غرفته، وضربه لمدة شهر كامل ومن ثم أحضرت له هدية صغيرة، وربّتُّ على كتفه.

لكنه بعد المرحلة الأولى وعلى الرغم مما قمت به الآن، يدرك تماماً أني قادر على إعادة ما قمت به سابقاً. وأن شعوره بالارتياح تجاهي سيجعله يخضع لي بشكل أو بآخر. كما سيختلف شكل علاقته معي، أنا لم أعد بالنسبة لسجيني مجرد محقق بل أكثر من ذلك.

خروج الجنين

يأخذ المعتقَل مجبراً، بأوامر من المحقق وبسبب ازدحام المكان أيضاً، وضعية الجنين أثناء جلوسه، ويعتاد عليها بعد فترة. هذا ما حدث مع رائد، لكني في الآونة الأخيرة بدأت ألاحظ محاولاته في الخروج من وضعية الجنين تلك.

يجلس رائد منحني الظهر، رأسه مطأطئ قليلاً، بعد لحظات أراه وقد شد ظهره ورفع رأسه، يسترخي قليلاً فينحني ظهره مجدداً، لكنه يشد ظهره حتى يستقيم، يرفع رأسه، يعيد هذا مراراً وتكراراً.

نحن أبناء قابيل

2014/7/12

لقطة بعيدة لمدينة. الزمان أمس، أو ربما اليوم. الغبار يكسو التفاصيل في الصورة. العين تقفز للتحديق في الدخان الكثيف الرمادي الممزوج باللون الأحمر المتصاعد من ثلاثة مواقع في تلك المدينة.

ـ فلسطين اليوم: غارة إسرائيلية على مدينة غزة.

ـ لجان التنسيق المحلية في سورية: طيران النظام السوري يشنّ غارة على مدينة حلب.

الموت ذاته مع اختلاف المنطقة الجغرافية

طفل صغير، يبدو أنه يبلغ من العمر أربع أو خمس سنوات، عيناه مغمضتان، على جسده لطخات دماء، المكان يبدو مألوفاً، الموت كذلك.

ـ فلسطين الآن: قتل طفل فلسطيني يبلغ من العمر خمس سنوات في غارة إسرائيلية على شمال قطاع غزة صباح الخميس.

ـ لجان التنسيق المحلية: مقتل طفل يبلغ من العمر خمس سنوات في غارة لطيران النظام السوري على الغوطة بريف دمشق.

تركض الأم في الصورة، يبدو أنها تصرخ، يبدو أنها تبكي، تحمل في يدها طفلاً، هل هو على قيد الحياة؟ هل تحمل جثة طفلها؟.. ليست

وحدها في الصورة، هناك رجال ونساء يحملون أطفالهم أيضاً، يبدو أنهم يصرخون، أظن أنهم يبكون. عد إلى الوراء قليلاً، المكان حولهم شبه مدمّر، أحدهم ينظر إلى الوراء مثلك، هناك جثث على الأرض...

ـ شبكة قدس الإخبارية: مقتل 9 مدنيين في قطاع غزة، بسبب القصف الإسرائيلي على الأحياء السكنية.

ـ شبكة شام الإخبارية: مقتل 9 مدنيين في درعا البلد، بسبب قصف النظام السوري الأحياء السكنية.

في الموت

المخلوقات التي في الصور، أي المقتولون والجرحى والخائفون والمدمّرون هي لـ (بشر)، في حال جرّدنا عنهم فكرة الهوية، والتأطيرات السياسية، والتاريخ المرتبط بالمكان الذي يعيشون فيه.

قد نستطيع القول إن من يقتل الإنسان المجرد هو الإنسان الآخر المجرد، وربما يمكننا أن نقول إن مُشاهد الصور والأحداث هذه هو أيضاً إنسان مجرد، يحدّق في تفاصيل الصور.. أجساد ممزقة، دماء، دمار. هو يتأثر أيضاً، وتتراكم عنده مشاعر من الحزن والألم سبّبها له إنسان، كما يحمل المُشاهد الإنسان نتيجة هذه الأحداث، بحسب اتجاهاته وانتمائه وتاريخه، مشاعر غضب وحقد تجاه الإنسان الآخر.

الغريزة التدميرية

منذ أن وُلدنا ونحن في طور إدراكنا للحياة وبناء الشخصية، نسمع قصصاً كثيرة عن الموت والقتل والمعارك والحروب.. الأخ الذي قتل أخاه من أجل السلطة، من أجل الثأر، الشرف، الغيرة، الملكية، مجازر يرتكبها بشر تجاه بشر آخرين، إبادات جماعية.. تاريخ هذا الموت والإجرام والقتل

الذي ارتكبه الإنسان تجاه الإنسان يعود إلى بداية البشرية، كما روت الأساطير. وما زال مستمراً نشهده ونعيشه نحن اليوم.

في حال اعتمدنا الرواية الميثولوجية الكبرى في سياق التكوين البشري الأصل، والتي تقول إن قابيل قتل أخاه هابيل بسبب الغضب والغيرة، (أوائل الجنس البشري الخاص بنا)، فهذا يجعل من تتابع المجريات التدميرية البشرية يتفق مع تلك الرؤية التي تزعم أن القتل أمر غرائزي عند الإنسان.

إذاً، قد نستطيع القول إن الإنسان لديه فطرة عدوانية، أي إن الإنسان هو عدواني بطبعه، وذلك لأنه منذ الأزل كان عدوانياً، كما الحيوانات تماماً، إلا أن الذئب الجائع يتوقف عن القتل في حال أحسّ بالاكتفاء، كما أن الدب لا يقتل 1000 دب، في حال شعر أن دباً واحداً يهدد وجوده.

في الحياة

يحق للإنسان أن يعيش بسلام، وأن تتمحور حياته حول البناء والتطور. نحن على يقين أن لا حياة مثالية ولا مدينة فاضلة كذلك، وأن هناك دائماً جوانب سوداء، طرقات مسدودة، خسارات، أزمات، لكن لماذا على الموت والانتماءات السياسية والجغرافية والأطر المجتمعية المتطرفة التي فُرضت علينا، أن تصبح هي الحياة الخاصة بنا بكل تداعياتها، وبالأجيال التي سبقتنا، والتي ستأتي لاحقاً؟ الصراعات اليوم وسابقاً هي من حددت مجريات يومياتنا ومشاعرنا، تلغينا وتعدمنا، تخلق أشكالاً عديدة من مشاعر الثأر والغضب والانتقام من العالم.

في الاعتياد على الدم ـ الأضاحي

هذه العادات لم يعد تطبيقها أو تنفيذها معمماً في الكثير من الدول إلا أن هذا لا ينفي تأثيرها تاريخياً على اللاوعي البشري.

معظم الأديان القديمة والمحدثة أنشأت روادع للنزعات العنيفة، واستبدلت بالتجليات العدوانية عادات وطقوساً كالأضحية بالحيوانات والنذور.

يذبح المسلمون والمسيحيون واليهود وغيرهم الخرفان في الأعياد وذلك تقليد، ولربما هذا يبدو أمراً طبيعياً على عكس الطريقة التي يقومون بها: الخروف أمام المنزل، يخرج الأب والأم، الأطفال يشاهدون عملية النحر، يضربان رقبته بالسكين ويتركانه حتى يموت، الأطفال يراقبون حركة جسد الخروف والدماء التي تسيل من رقبته على الأرض حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، ثم يطلبان منهم أن يقفزوا فوقه ويضعون لهم نقاطاً من دمه على رأسهم. هذا ليس كل شيء، فعلى غداء العيد يطبخون لهم أجزاء منه، ويطعمونه للأطفال الشهود على عملية النحر.

لربما كانت هذه التقاليد، أحد أنواع تفريغ العنف والإمكانيات العدوانية لدى البشرية، وتحويله إلى شكل مقبول اجتماعياً، أي تقديم الأضحية الحيوان بدلاً من الأضحية (الإنسان)، لكن هذا التبديل، لا ينفي أن فكرة الأضحية وتطبيقها قد تمكننا من افتراض أنه (أصبح لدينا أطفال اعتادوا ـ دون أن تدركَ كما الوالد والوالدة ـ أن يشاهدوا عملية النحر، الذبح والقتل، وكذلك تقليد شرب دم المسيح، وإن كان الدم ليس حقيقياً، لكن تكرار الفكرة، والطقس المرافق لها، وتقديم اللون الأحمر أي النبيذ للأطفال تحت مسمى دم المسيح، يجعلهم يعتادون دون أن يدركوا ـ على فكرة الدم وشربه من جسد ميت، وإن كان القصد من الطقس تطهيرياً ولا يدعو للعنف بحد ذاته).

الاعتياد على الدم في الصوَر

نستيقظ صباحاً، نستقل وسيلة النقل إلى العمل، الراديو يعلن عن «قتلى في سورية»، «قتلى في فلسطين»، «قتلى في العراق».. إلخ. تصل

إلى المكتب، تدخل إلى حسابك في إحدى وسائل التواصل الاجتماعية، أو تفتح أحد المواقع الإخبارية، تشاهد صوراً كثيرة، جثثاً، دماء وأشلاء.. في المرة الأولى، تتوسّع حدقتا العينين، وتتسارع دقات قلبك، تشعر بالغثيان، بالحزن، بالألم والغضب.. بعد مدة، تشاهد صوراً مشابهة بل من الممكن أن تكون أكثر دموية، حدقتا عينيك لا تتوسعان، دقات قلبك تبقى منتظمة، أما مشاعرك فيتغيّر تواترها الانفعالي بشكل متسارع، وتقصر مدتها الزمنية.

عدّاد الأرقام

فلسطين: حصيلة القتلى منذ بدء الغارات الإسرائيلة في الأيام القليلة الماضية هي 97 قتيلاً حتى اللحظة.

لجان التنسيق المحلية: حصيلة القتلى لليوم، بسبب قصف النظام السوري للمدن السورية هي 150 قتيلاً.

المستقبل دموي أيضاً

ما قامت به إسرائيل في فلسطين هو عدوان، وكذلك ما يقوم به النظام السوري بكل تأكيد، لكن يبدو أن التاريخ الدموي لجنسنا البشري، وخاصة في العالم العربي، لا يبشّر إلا بمستقبل دموي آخر. (الإنسان يقتل الإنسان). أظن أنه في هذه الحالة قد تكون مقولة «الإنسان وُجد كي يموت» صحيحة.

السوري واللبناني وجهاً لوجه

2014/7/18

في بلاد بعيدة جداً، عاشت صراعات عنيفة، بين القوي والضعيف، بين الحاكم والحاكم الآخر، بين القائد والقائد الآخر، بين الشعب والشعب الآخر، بين الشعب والقائد، بين المدير الأكثر نفوذاً والأقل نفوذاً. استطاع مدير دار للأيتام أن يفرض جبروته على مدير دار للأيتام أيضاً في البلد المجاور.

1989 ـ المدير (خرنفش) القوي فرض على المدير (فرسطع) الضعيف اتفاقاً تحت إشراف المؤسسة الكبرى لرعاية دور الأيتام في المنطقة، وهو ينص على أن «يخضع أيتام دار فرسطع لـ خرنفش، كي ينظم الدار ويعتني بالأيتام ويشرف عليهم كداعم لـ فرسطع في عمله هذا، بناءً على طلب الأخير».

وكخطوة أولى لتنفيذ هذا الاتفاق، طلب خرنفش من مجموعة المدربين والمشرفين خاصته أن يدخلوا الدار الأخرى كأيتام، أوامر خرنفش للمشرفين هي استخدام كل الوسائل القمعية تجاه أيتام دار فرسطع للسيطرة عليه، وفرض نفوذه.

«مابفهم كيف كانوا يقولوا نحن شعب واحد بس ببلدين، هالشعبين ما بيعرفوا بعض بالأصل» ـ **لبنان**.

«كانوا يقولولنا الجيش السوري عم يحمي لبنان لأنو نحن شعب واحد، وبالنهاية لبنان امتداد جغرافي لسورية» ـ **سورية**.

خلق خرنفش حالة عدائية بين الأيتام في الدارين بمساعدة فرسطع والمؤسسة المشرفة والمختصين، وبعد مرور الوقت، أصبح أيتام دار «فرسطع» يحتقرون أيتام دار «خرنفش»، إذ كانوا يظنونهم قدِموا للعيش معهم، وبناءً على هذا الاحتقار، أصبح أيتام دار خرنفش يكنّون المشاعر ذاتها لأيتام دار فرسطع، لكن في الحقيقة، فإن الأيتام في الدارين لم يلتقوا ولم يكبروا معاً، كما أفاد خرنفش وفرسطع، ومَنْ خلفه في تقاريرهم للمؤسسة الكبرى.

«ماكنت بعرف أيا شي عن الحياة في سورية، كانت مربوطة بالنسبة إلي بالنظام وبشار الأسد، إنو في ناس احتلونا وعندي رعب منهم» ـ **لبنان**.

«بالنسبة إلي كانوا عنصريين ضدنا، عندن شعور إنو هني المتحضرين ونحن المتخلفين، نظرية طبقية بحتة، مع إني ما احتكيت فيهن بس ما بعرف ليه هيك كنت حس» ـ **سورية**.

2011 ـ قرر عدد كبير من أيتام دار خرنفش التحرر من سيطرة الأب المفروض عليهم، تجمعوا وأعلنوا حالة العصيان، فقام خرنفش بمعاقبتهم، حبس الكثير منهم، وعذبهم، ومع استمرار العصيان، انتقل خرنفش إلى قتل الأيتام المعارضين له، ومحاصرتهم. فلم يكن أمام الأيتام هؤلاء سوى الهرب من الدار والذهاب إلى دار أيتام فرسطع على الرغم من كل المشاعر العدائية التي يحملها هؤلاء لأولئك. وهنا كان اللقاء الأول بين الأيتام في الدارين وجهاً لوجه.

«أول ما بلشوا السوريين يجوا لعنا، كنت عم حاول اتجاهلهم تماماً، كانوا بالنسبة إلي برجعوني لليوم اللي أكلت فيه كف على حاجز للأمن السوري وأنا صغيرة» ـ **لبنان**.

«أول فترة ببيروت كنت حس كل ما أطلع من البيت كأني رايحة على جبهة قتال، الناس والطرقات والسرفيس وأصحاب البيوت، كنت حس بالعدائية حتى لو ما كانت مباشرة» ـ **سورية**.

أمر خرنفش فرسطع بالتنحي وأعطى الصلاحية الكاملة لمشرفيه، الذين استطاع من خلالهم تقسيم الدار وقاطنيها إلى جماعات منفصلة، ثم منح من أعلن له الولاء نفوذاً على الجماعات الأخرى، وذلك ليكونوا يده في دار فرسطع.

«الشعب السوري ما وقف معنا وقت الحرب الأهلية، ولا عمل شي وقت احتلنا الجيش السوري» ـ **لبنان**.

«حزب الله هو جزء من الشعب اللبناني، هاد الحزب اللي هلق عم يقتل أهلنا» ـ **سورية**.

بدأت جماعات خرنفش بمهاجمة الأيتام المعارضين عبر ترسيخ ما تم خلقه من عداء في الماضي، على عكس الجماعات الأخرى التي لم تخضع لسلطة خرنفش. لكن المشاعر القديمة ما زالت موجودة بينهم.

«كنت حس إنن عم ينعزلوا مع بعض، بنلتقى بحياتنا اليومية بالقهوة بالشارع بكتير أماكن، بس كان في حاجز بينا بخلينا ما نقرب أكتر» ـ **لبنان**.

«كنت حس إنو وجودنا مزعج بالنسبة لإلُن، وأيا كلمة بسمعها منهن عن السوريين أد ما كان عادي، بعتبرو هجوم» ـ **سورية**.

ازداد عدد القادمين من دار خرنفش إلى دار فرسطع الصغير المقسم، ما أدى إلى حصول مشاحنات متقطعة تعود جذورها إلى المشاعر المتراكمة تجاه بعضهما البعض، والتي استغلتها جماعات خرنفش بكل الطرق الممكنة، فيما قامت مجموعات من الأيتام باحتضان هذه الأحداث وأعلنت بشكل واضح وصريح وقوفها معهم.

«بعد فترة، صار عندي رفقات لبنانية، بسببهن صار عندي فضول لأعرف كل شي عن لبنان، وهالشي كسر الصورة القديمة» ـ **سورية**.

«من وقت بلشت حاول إتعرف على السوريين أكتر وقرّب منهن، وشو عم يصير معهن، بلّشت أطلع من الصورة النمطية اللي كانت براسي» ـ **لبنان**.

ما زالت دار أيتام خرنفش تتعرض للعنف والقمع والقتل من قبله، في حين يعاني من خرج منها مادياً ومعنوياً وقانونياً وإنسانياً، أما دار أيتام دار فرسطع فما زالوا يعيشون مع تداعيات التقسيمات المختلفة والصراعات بينها، لذلك من الطبيعي أن يحتاج الأيتام من البلدين إلى الكثير من الوقت لخلق شكل من التعايش بينهما، فهما محمّلان بثقل الماضي والحاضر.

العلاقة بين السوريين واللبنانيين

قد نتساءل: هل فعلاً لا يعرف السوريون واللبنانيون أحدهم الآخر؟، الحرب الأهلية الطويلة، الجيش السوري، قوات الردع، حصار بيروت وخروج منظمة التحرير، تفويض الأسد، السرقات، العنصرية، الطائفية، المخابرات السورية، الاعتقالات، اغتيال الحريري، حزب الله في لبنان وتدخله لاحقاً في سورية ضد الشعب السوري، الاغتيالات والتفجيرات، كل هذه الأحداث لا يمكن إلا أن تخلق الأحقاد وتصورات نمطية جاهزة عن الآخر.

لكن ما حدث لاحقاً، وعلى الرغم من كل الأوضاع غير الطبيعية والمحتقنة، هناك فسحة ما وفضول لاستراق النظر إلى الآخر واكتشافه، في إطار مختلف بعيد عن المؤسسات والأنظمة السياسة والأمنية.

نعيش فرط الموت

2014/8/5

فرط الموت، هذا ما نعيشه في بلادنا اليوم. الأحداث في الصور البيضاء والسوداء، تلك التي كانت تُعرض على شاشات التلفاز القديم، كتب التاريخ، وما جمعته الأجيال قبلنا، عادت بشكل أكثر فجاجة، غوغائية ودموية، لم يعد هناك مكان للون الأبيض والأسود، بل الأحمر أكثر ما يطغى على المشهد ككل، شواهد القبور تسلب مساحات شاسعة من الأراضي، قصص أصحابها تمتزج بالحياة اليومية، في المدن السورية، في المدن العراقية، في المدن الفلسطينية، في المدن اللبنانية، وكذلك في أطراف البلاد حيث نُصبت خيّم اللاجئين.

توثيق موت الأحبة

الجثة الأولى.. الجثة الثانية.. الجميع يهرع إلى مكان القصف، الجثة الثالثة والرابعة، اثنتان وعشرون جثة، اثنان وعشرون وجهاً، اثنان وعشرون جسداً متفحماً، بأحجام وأشكال مختلفة. لا أثر لأخيه هناك، رائحة الموت تضغط على قدميه، تزداد رجفة جسده، يشعر بالغثيان، يبتعد. يعود إلى منزله، يلتقي بوالده، يخبره والده أن أخاه بخير...

هذا ما حدث مع محمد الثائر، أمس، في دوما بريف دمشق.

«من وقت ما صوّرت مجزرة الكيماوي ما عاد حملت الكاميرا، وقتها كانوا عم يجيبوا المصابين، عم يموتوا واحد ورا التاني، صرت صرّخ وأرجف، صاروا يحطوهم فوق بعض لأنهم كانوا كتير كتار وما في أماكن».

محمد الثائر هو من مواليد عام 1986، تخرّج في كلية الحقوق، وهو أب لطفل عمره شهر ونصف الشهر، يعمل مع فريق الرصد الميداني لمركز توثيق الانتهاكات في الغوطة الشرقية.

«كنت عم حس بدوخة وحاسس حالي رح أتقيأ بأي لحظة، كنت خايف، بس ما كان قدامي حل غير وثّق الموتى والمصابين». ويكمل: «الموت بخوِّف كتير، وإنو يموت حدا من أهلك.. بس نحنا بحالة حرب، ما حدا بيضمن يضل عايش».

الطفلة ذات العامين تلفظ أنفاسها الأخيرة. ينادي على الأطباء، يصرخ، يبكي، يركض بين الحشود المتجمعة، والصرخات، رائحة الكيماوي تخترق كل الموجودين، جسد صغير بين مئات الأجساد، بشرة بيضاء، عينان بلون أبيض، شعر خفيف ملس، الزبد يخرج من فمها، يتذكر ملامحها جيداً...

«بعد يومين، ما عاد في ألوان بالحياة، وقرفت كل شي، وحسيت باليأس، الحياة مالها أي معنى بعد اللي شفته»، قال محمد.

الذهاب إلى القتال

«وقت حملت السلاح وأطلقت أول رصاصة كنت حاسس بالغضب. أول مرة قتلت حدا من جيش النظام بحلب، انبسطت كتير، لأنو وقتها كانوا عم يضربوا رصاص على المدنيين، مات 4 مدنيين قدامي ومنهم ابن رفيقي عمره 14، ما حسيت حالي غير عم أقتل مجرمين وقتلة».

هذا ما قاله الشاب ابن الثمانية والعشرين عاماً، والملقب بالشهيد،

وهو انضم إلى صفوف الجيش الحر بعدما كان ناشطاً في صفوف الثوار السلميين. «فكرة الموت بتخوفني كتير، بس ما بيخوفني بالمعركة، لأنو بعرف إنو اللي عم حارب من شانه كتير عظيم، مشان بلدنا تتحرر من الظلم، نحن ناس بدها تعيش بحريتها وكرامتها ويكون عنا مستقبل أفضل».

وأضاف: «بخاف من الموت وقت القصف، أشلاء الضحايا، فكرة أديش موجع الموت بهي الطريقة.. أحياناً بزعل وقت أقتل حدا من عناصر النظام، يمكن يكون ما لهم ذنب متلنا تماماً، بس ما في حل تاني، هني عم يقتلوا الناس ونحن بدنا ندافع ونحمي».

لم يعد الموت مصادفة

سورية ـ لبنان ـ فلسطين ـ العراق

«الموت شيء طبيعي، الموت هو موتنا نحن، ومع ذلك لا نفكر فيه إلا بوصفه موت الآخرين، المهم أن نستمر في الإبحار، لكن الحرب جعلت الإنسان يواجه الموت وأجبرته على الاعتراف به، الموت كدافع للتفكير، الموت عند البدائي، فكرة الروح والخلود والشعور بالذنب، لا شعورنا البدائي تفضحه الحروب»، سيغموند فرويد.

لكن الحرب تضعنا في مواجهة مباشرة مع الموت الجماعي، الذي قد يؤدي إلى الاعتراف بالموت، أي أن نعترف بأننا نحن من سنموت، وليس فقط الآخرون. فالحرب، إذاً، تفضح لاشعورنا ذاك.

لبنان ـ مصادر من مشفى الهيئة الطبية في عرسال لـ «النهار»: مقتل 29 مدنياً منذ بداية معارك عرسال، أربعة منهم لبنانيون، و175 جريحاً.

سورية ـ شنّت القوات السورية حملة عسكرية على مدينة دوما القريبة من دمشق مع استمرار المواجهات العنيفة في عدد من المناطق، وأعلن المرصد السوري لحقوق الإنسان مقتل 34 مدنياً برصاص الجيش السوري بينهم عشرة أطفال.

العراق (صوت العراق) ـ أفاد مصدر في الشرطة، الأحد، بأن ثمانية مدنيين قتلوا بهجمات مسلحة في مناطق متفرقة من بغداد.

فلسطين (الجزيرة) ـ بلغ عدد الشهداء منذ ساعات الفجر الأولى اليوم السبت أكثر من أربعين شهيداً، ونحو مئة جريح، ليرتفع إجمالي ضحايا العدوان الإسرائيلي منذ بدئه إلى 1645، وأكثر من 8500 جريح.

ولأن الحرب لا تكتفي بقتل شخص أو ثلاثة، بل بآلاف عديدة، تبدو عملية الموت عنيفة متسارعة، قريبة للغاية، دافعة الناس إلى التعامل مع الموت بشكل مختلف، ففي الحروب لم يعد ذاك الشيء المسمى بالموت مجرد مصادفة.

في تصوير الموت

تخلق عدسة الكاميرا حاجزاً بين المصوّر والحدث، الجثث، القتل، المعركة.. تنفصل مشاعرك كلياً عن المجريات، وتسارع إلى تصوير ما يحدث، إلى أن تضعها جانباً، تصبح حينئذ جزءاً وشاهداً على الحدث.

«رح إكذب إذا كنت قلك إنو ما خاف، بس الشي الغريب هو إنو كنت خاف بعد ما تخلص المعركة، واسأل حالي: وين كنت وشو اللي عم يصير؟! الخوف على طول بيخليكي تهربي لقدام، هادا التكتيك تبع الهرب للخط الأول، وغالباً نتيجة إنو معظم اللي بيموتوا بيكونوا بالخطوط الخلفية بالعادة، فبتلاقي الجبناء هني اللي بيهربو لقدام».

صوّر فادي زيدان (32 عاماً)، الحراك السلمي، المعارك، القصف، والمجازر في المدن السورية: «أول مرة رحت على مكان عمل عسكري كان تحرير مدينة الرستن (في ريف حمص)، تاني مرة بالعام 2012، حسيت بالخوف عالطريق، ورح إكذب إذا قلت إني ما خفت كتير، بس من اللحظة

اللي وصلت فيها ما عاد حسيت بالخوف.. كمية الإثارة اللي بتعيشيها بالمعركة هي اللي بتورّط أي مصوّر حربي إنو يضل بشغله».

ويكمل: «بس أطلع بَعْمل يومين عزلة، ما بشوف حدا، بحاول إرجع أتذكر كل التفاصيل، وبحلف مليون مرة ما رح عيدها، بعد أسبوع بكون عم دوّر على فوتة جديدة».

ويضيف: «الأصعب من الموت هو الناس اللي بتحبيهم وبتعرفيهم وبتفقديهم، أما فكرة أني موت فما عادت تخوّفني».

لقاء مع الموت داخل الزنزانة

«أول مرة بحس إنو الموت قريب عليّ بالمعتقل، لأنو الموت بكون أبشع بكتير، بتنحرم من تفاصيل الموت الطبيعية، الموت بالعتمة، بلا ناس، بلا وداع، مات 3 قدامي بالزنزانة.. أول واحد حاولت إنعشه، بس مات، ما كان في وقت نحكي بالموضوع، بس الدكتور اللي فيي حسّ بالعجز، والإنسان اللي بداخلي شعر بالقهر والخوف».

اعتقلت المخابرات السورية بشار لمدة 11 شهراً، شهد مقتل ثلاثة من المعتقلين، «بيومها ماتوا كمان اتنين بس موقدامي، وصلوا لحافة الموت.. طلّعوهم لبرّا الزنزانة وبعدين عرفنا إنو ماتوا».

ويكمل: «بالمعتقل التعامل مع الموت بكون مجرد أكتر، لأنه أقرب، ما في طرق للتحايل أو الهرب، هي هيك وجهاً لوجه، الزعل على الميتين بالمعتقل رفاهية ما كتير متوفرة».

وأضاف: «بس هلق صرت بعرف الموت كتير منيح، ما بعرف إذا انتصرت عليه أو هربت منه، أكيد تغيّرت، بس هاد ما بينفي إنو بخاف من هداك الموت اللي جوّا».

في الحياة داخل الموت

أعداد الموتى في سورية، أعداد الموتى في غزة، أعداد الموتى في لبنان، كلها في ازدياد، والأحياء ينقصون واحداً تلو الآخر، قد يجعلنا ذلك نقسم البشر المتواجدين في مناطق الحروب هذه على سبيل المثال إلى قسمين: الأموات، والمصابون بحمى الموت.

تعايشَ الإنسان مع الموت، إذ حاول جاهداً ترويض نفسه والمضي إلى يومه التالي، وإخفاء الموت داخل الحياة، وإن كانت حياتنا في الواقع داخل الموت ذاته، وكأننا اليوم نتحمّل الحياة لنكون في استعداد كامل لكي نموت.

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»، بمساعدة من جمعية «**مبادرة من أجل سورية جديدة**» ـ باريس، الكتب التالية:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.
8. غرفة تطل على الحرب، إيديت بوفييه.
9. إذا قفزت عن السياج ولم أصب بأذى، عمرو كيلاني.
10. أرض مائدة، ضحى حسن.

مذّ هُجّر الفلسطينيون من ديارهم صارت الحقائب وطنا وصار الترحال قدرا يتقاذفهم عبر الجهات. وبين مطارح شتاتهم عبر العالم كانت سورية بلدا ثانيا ضمّهم واحتضنهم كما لو كانوا مواطنين أو "شبه مواطنين".
لكن الصراع الدائر في سورية جرف فلسطينييها، فنالهم ما نال السوريين من قتل واعتقال وتشريد.
تحت لسع تهديد المحقق "هاي مو بلدك، بتحبّي نرجع نزتّك على الحدود" تستفيق الغربة المكتومة عميقا في الذاكرة لتقدم هذه الشهادة عن زمن تميد به الأرض تحت أقدام الجميع.

بيت المواطن
للنشر و التوزيع